تعليقات على
تفسير الفاتحة وقصار المفصَّل
الشَّيخ صالح بن عبد اللّٰه العصيمي

النُّسخة الإلكترونية الثالثة

الشيخ لم يراجع التفريغ

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمدُ للهِ الذي صيَّر الدِّين مراتبَ ودرجاتٍ، وجعَلَ للعلمِ به أصولًا ومُهمَّاتٍ.

وأشهدُ أن لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ حقًّا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسولُه صِدْقًا.

اللّٰهمَّ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كمَا صلَّيت علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آل إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللّٰهمَّ بارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ.

أمَّا بعدُ..

فحدَّثني جماعةٌ من الشُّيوخ -وهو أوَّلُ حديثٍ سمِعتُهُ منهم- بإسنادِ كلٍّ إلىٰ سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن عَمرو بن دينار، عن أبي قابوسَ مولىٰ عبد الله بن عَمرو، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرَّاحمُون يرحمُهم الرَّحمنُ تبَارَك وتعالىٰ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء**»، ومن آكد الرَّحمة رحمةُ المعلِّمين بالمتعلِّمين في تلقينِهم أحكامَ الدِّينِ، وترْقِيَتِهم في منازلِ اليقين، ومن طرائقِ رحمتهم إيقافُهم علىٰ مهمَّات العلم بإقراء أصولِ المُتون وتبيين مقاصدِها الكليَّة ومعانيهَا الإجماليَّة؛ ليستفتح بذلك المُبتدئون تلقِّيَهم، ويجدُ فيه المتوسِّطون ما يذكِّرهم، ويطَّلع منْهُ المنتهون إلىٰ تحقيقِ مسائلِ العلم.

وهٰذا شرح (**الكتاب الثَّامن**) من **برنامج مهمَّات العلم في سنته الأولىٰ** وهو (**كتاب تفسير الفاتحة وقصار المفصَّل**) لمعدِّ البرنامج صالح بن عبد الله بن حَمد العُصيمي.

۞۞۞۞

قال المصنِّف حفظه الله تعالىٰ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله خلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا، وأنزل الكتاب ليكون للعالمين نذيرًا، وصلَّىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمَّدٍ المبعوث داعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلىٰ آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد..

فإنَّ معرفةَ معاني كلام الله، والإشرافَ علىٰ مكنونِ هداه، هي أولىٰ ما أُدمن فيه النَّظر، وحُرِّكت نحوَه الفِكر، فَبِه تُحصِّل النُّفوسُ راحتَها، والقلوبُ طمأنينَتها.

قوله: (والإشرافَ علىٰ مكنون هداه) أي علىٰ الهُدىٰ المحفوظِ فيه، والمُراد به: ما تضمَّنه من البيان والإرشاد.

وهداية القرآن نوعان اثنان:

أحدهما: هدايةٌ عامَّةٌ للعالمين.

والآخر: هدايةٌ خاصّةٌ للمؤمنين.

والفرق بينهما أنَّ الأوَّل يتناولُ إقامة الحجَّة، والثَّاني يتناولُ إيضاح المحجَّة.

ألا وإنَّ قصار مفصَّلِه اللَّطيف من الضُّحىٰ إلىٰ آخر المصحفِ الشَّريف، محلُّ عناية جمهور المسلمين حفظًا، لِقِصر آياتها، وعذوبة سياقها، ولكلٍّ فضائلُ مخصوصةٌ، ومقاصدُ منصوصةٌ، فهي حقيقةٌ بالتَّفهُّم، وجديرةٌ بالتَّعلُّم.

وهٰذا تفسيرٌ مختصَرٌ للسُّور المذكورة، يَقرُب تناولُه، ويَسهُل تأمُّلُه، قيَّدتُه راجيًا منفعتَه التَّامَّة، وملتمِسًا بركتَه العامَّة، مستفتَحًا بتفسير الفاتحة لما لها من مقامٍ عظيمٍ، ومنزلٍ كريم.

واللهَ أسألُ السَّلامةَ من الزَّلل، واتقاءَ سوء القول والعمل.

قوله: (فهي حقيقةٌ بالتَّفهُّم، وجديرةٌ بالتَّعلُّم) تقدَّم أنَّ خطاب الشَّرع نوعان اثنان:

أحدهما: الخطاب الشَّرعي [الطَّلبي] المقتضي للامتثال بالأمر بفعل الأمر وترك النَّهي.

والثَّاني: الخطاب الشَّرعي [الخبري] المقتضي للتَّصديق.

ومردُّ معرفة جوامع هٰذين النَّوعين إلىٰ قسمينِ من القرآن:

أحدهما قِصَار المفصَّل، وأكثر ما فيها ما يتعلَّق بالخطاب الشَّرعي الخبري.

والآخر سورةُ البقرة وأكثر ما فيها الخطاب الشَّرعي الطَّلبي.

فاستفتاح تلقِّي التَّفسير بمعرفةِ تَفسيرِ هٰذين القسمين يُوقِف علىٰ جوامعِ البيان للنَّوعين معًا، **فمن رام التَّفسيرَ فليجعلِ اشتغاله أوَّلًا بقصار المفصَّل، ثم يرتقي بعدُ إلىٰ سورة البقرة.**

۞۞۞۞

تفسير سورة الفاتحة

عن أبي سعيدٍ ابنِ المُعلَّىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أُصلي فدعاني النَّبيُّ ﷺ فلم أُجِبْهُ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي كنتُ أُصلي، قالَ: «ألم يَقُلِ اللهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾»، ثمَّ قالَ: «ألا أُعلِّمك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن تخرجَ من المسجدِ»، فأخذ بيدِي، فلمَّا أردنا أن نخرجَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ؛ إنَّك قلتَ: «لأُعلِّمنَّك أعظمَ سورةٍ من القرآن»، قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السَّبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيته». رواه البُخاريُّ.

قوله: (هي السَّبعُ المثاني)، سُمِّيت الفاتحة بذلك لأمرين اثنين:

الأوَّل: يتعلَّقُ بالألفاظ؛ فآياتُها يَتْبَع بعضُها بعضًا ويتلو بعضُها بعضًا.

والآخر: يتعلَّق بالمعاني؛ لاقتران جملةٍ من المعاني المتناسبة فيها **كالخبر بالإنشاء** في قوله تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مع قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، **وصفات الجلال لله بصفات الجمال** كقوله تعالىٰ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مع قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقوله: (والقرآنُ العظيمُ) لهٰذه الجملة معنيان اثنان:

أحدهما: أنَّهُ وصفٌ للفاتحة فهي قرآنٌ عظيم؛ بمعنىٰ مقروءٌ عظيم، ويدلُّ علىٰ ذلك كونُها أعظمَ سورة.

والآخر: أنَّ العطْفَ فيها من عطف العامِّ علىٰ الخاص، فيكون إنشاءً لجملةٍ جديدةٍ يُراد بها القرآنُ كلُّه.

۞۞۞۞

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «قال اللهُ تعالىٰ: قسمتُ الصَّلاةَ بين وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سألَ، فإذا قالَ العبدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تعالىٰ: حمِدني عبدي، وإذا قالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قالَ اللهُ تعالىٰ: أثنىٰ عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قالَ: مجَّدني عبدي، – وقالَ مرَّةً: فوَّض إليَّ عبدي –، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قالَ: هٰذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما

سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: «هٰذا لعبدي، ولعبدي ما سأل». رواه مسلمٌ.

قوله: (هٰذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل) إشارةٌ إلىٰ عهدٍ، وقوله: (هٰذا لعبدي، ولعبدي ما سأل) إشارة إلىٰ وعد.

وهٰذان المذكوران من العهد والوعد في سورة الفاتحة هما المرادان بالذِّكر في حديثِ شدَّادِ بنِ أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند «البخاريِّ» في سيِّد الاستغفار، وفيه: «**وأنا علىٰ عَهدك ووَعْدك ما استطعت**» فإنَّ العهد والوعد المذكوران في سيِّد الاستغفار المأمور بقوله في الصَّباح والمساء هما المذكوران في هٰذا الحديث المنتظمان في سورة الفاتحة.

۞۞۞۞

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أقرأُ القرآن، فالباء في البسملة حرف جرٍّ أصليٍّ لملابسة جميع أجزاء الفعل لأسمائه تعالىٰ، وهو متعلِّق بمحذوفٍ وتقديرُه فعلًا خاصًّا مؤخَّرا أوْلىٰ، فمقصودُ المبسمِل في فاتحة القراءة هو: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم أقرأ.

قوله: (لملابسة جميع أجزاء الفعل لأسمائه تعالىٰ) المرادُ بالملابسة: المصاحبةُ والوقوعُ معه، وقوله: (وهو متعلِّق بمحذوف) إلىٰ آخره ، أي: إنَّ الجارّ والمجرور في قوله: (بسم الله) متعلِّق بمحذوفٍ يبيِّن معناه؛ إذ لا يتحقَّق المعنىٰ المراد من ذكر الجارِّ والمجرور إلَّا بمتعلِّقٍ يبيِّنُه، كما قال النَّاظم:

لابدَّ للجارِّ والمجرور من تعلُّقِ   [بفعل أو معناه نحو مرتقي]

وقوله: (وتقديره فعلًا خاصًّا مؤخَّرا أوْلىٰ) أي: أولىٰ في التَّقدير، وفيه إشعارٌ بوجود غيره من المقدَّرات؛ ولٰكنَّ الصَّحيح تقديرُه متعلَّقا محذوفًا موصوفًا بهذه الأوصاف الثَّلاثة، فهو **فعلٌ** لا اسمٌ، **وخاصٌّ** لا عامٌّ **ومؤخَّرٌ** غير متقدِّم.

والمناسب منه في هٰذا المحلِّ تقديرُه بفعل: أقرأُ، فيكون متعلَّق الجارِّ والمجرور: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

أقرأُ.

۞۞۞۞

والاسم الأحسنُ (اللهِ) علمٌ علىٰ ربِّنا عَزَّوَجَلَّ، ومعناه: المألوهُ المستحقُّ لإفراده بالعبادة، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسمائه تعالىٰ، دالَّان علىٰ رحمته؛ فأوَّلُهما دالٌّ عليها حالَ تعلُّقِها به في سَعَتها، والآخر دالٌّ عليها حال تعلُّقها بالخلق في وصولها إليهم.

قوله: (والاسم الأحسنُ (اللهِ)) مأخوذٌ من خبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أسمائه فإنَّ الله قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[الأعراف:١٨٠]، وهٰذا خبرٌ عن الجميع، والخبر عن الواحد يكون بقولنا: الاسمُ الأحسن، أمَّا ما شاع في لسان المتأخِّرين من قولهم عند إرادةِ التَّعبير عن أسماء الله: ولفظُ الجلالة كذا وكذا، فإنَّه لا يخلو من اعتراضات ليس هٰذا محلُّ بيانها؛ أقلُّها أنَّه تعبيرٌ أجنبيٌّ غيرُ مراعًىٰ في الكتاب ولا السُّنّة، فما جاء في خطاب الشَّرع أوْلىٰ بالتَّقديم من غيره، فمن أراد أن يعبِّر عن شيءٍ من أسمائه، فإنَّ السَّالم من الاعتراضِ والموافِقَ لخطاب الشَّرع أن يقول المتكلِّم: والاسم الأحسن. معبِّرًا عن اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

۞۞۞۞

وأوَّل هذه السُّورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فالحمد هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبِّه وتعظيمه، و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اسمٌ إضافيٌّ، فالرَّبُّ في كلام العرب: الملك، والسَّيِّد، والمصلح للشَّيء، والعالمين جمع عالَم، وهو اسمٌ لجميع الخلق من مبدئهم إلىٰ منتهاهم، وكلُّ جنسٍ منها يُطلَق عليه عالَم، فيُقال: عالَم الإنس، وعالَم الجنِّ، وعالَم الملائكة.

المصنِّف عدل هنا فقال: (والعالمين جمع عالَم، وهو اسمٌ لجميع الخلق من مبدئهم إلىٰ منتهاهم) ثم قال: (وكلُّ جنسٍ منها يُطلَق عليه عالَم) وعدل عن قولهم: العالمين اسم لما سوىٰ الله، لماذا؟ لأنَّ تفسير العالم علىٰ ما سوىٰ الله مبنيٌّ علىٰ مقدِّمة منطقيَّة عند الفلاسفة والمنطقيِّين، هي قولهم: الله قديم والعالم حادث، والنَّتيجة فما سوىٰ الله عالم، وأنَّ العرب لا تعرف هٰذا في كلامها، ذكره الطَّاهر بن عاشور في «تفسيره».

۞۞۞۞

وربوبيتُه لم تُنتِج ظلمًا بلا رحمةٍ، ولهذا وصف نفسَه بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ فهو رحمانٌ وسِعَت رحمتُه جميع الخلق، رحيمٌ يوصل رحمتَه إليهم.

قوله: (فهو رحمانٌ وسِعَت رحمتُه جميع الخلق، رحيمٌ يوصل رحمتَه إليهم) مبنيٌّ علىٰ المحقَّق من الفرق بين هٰذين الاسمين (الرَّحمٰن) و(الرَّحيم):

أنَّ (الرَّحمٰن) اسمٌ دالٌّ علىٰ الله بملاحظة تعلُّق الصِّفة التي هي الرَّحمة بذاته.

وأنَّ اسم (الرَّحيم) اسمٌ دالٌّ علىٰ الله بملاحظة تعلُّق صفة الرَّحمة بالمخلوقين المرحومين.

ولذلك قال في الأوَّل: (فهو رحمانٌ وسِعَت رحمتُه جميع الخلق)، وقال في الثَّاني: (رحيمٌ يوصل رحمتَه إليهم) وذكرنا ضابط ذلك في قولنا:

وَرَحْمَةٌ للهِ مَهْمَا عُلِّقَتْ ... بِذَاتِهِ فَالاسْمُ رَحْمَانٌ ثَبَتْ

أَوْ عُلِّقَتْ بِخَلْقِهِ الَّذِي رَحِمْ ... فَسَمِّهِ الرَّحِيمَ فَازَ مَنْ سَلِمْ

۞۞۞۞

ثمَّ أكَّد ربوبيته بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وهو يومِ الحساب والجزاء علىٰ الأعمال، الَّذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار]، وهو يوم القيامة، وخصَّه بالذِّكر، لأنَّه يظهر للخلق فيه كمالُ مِلكه تمام الظُّهور، لانقطاع أملاك الخلائق؛ وإلَّا فهو مالك يوم الدِّين وغيرِه من الأيَّام.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أي نخصُّك وحدَك بالعبادة، ونستعين بك وحدك في جميع أمورِنا، وعبادة الله: تألُّه القلب له بالحبِّ والخضوع، والاستعانة به هي طلبُ العون منه في الوصولِ إلىٰ المقصود.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي دلَّنا وأرشدنا إلىٰ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وثبِّتنا عليه حتىٰ نلقاك وهو الإسلام.

قوله: (ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي دلَّنا وأرشدنا إلىٰ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وثبِّتنا عليه حتىٰ نلقاك) إعلامٌ بأنَّ الهداية المطلوبة نوعان اثنان:

الأوَّل: هداية دَلالة وإرشاد إلىٰ الصِّراط المستقيم.

والآخر: هداية ثباتٍ عليه وتمسُّكٍ به.

۞۞۞۞

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ المتَّبعين للإسلام الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ، ﴿غَيۡرِ﴾ صراطِ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الَّذين عرفوا الحقَّ ولم يعملوا به، وهم اليهود، ومن عَدَل عن الصِّراط المستقيم من هذه الأُمَّة وله علمٌ ففيه شَبَهٌ منهم، ﴿وَلَا﴾ صراطِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الَّذين تركوا الحقَّ عن جهلٍ فلم يهتدوا وضلُّوا الطَّريق، وهم النَّصارىٰ، ومن عدل عن الصِّراط المستقيم من هٰذه الأمة بجهلٍ ففيه شَبَهٌ منهم.

۞۞۞۞

تفسير سورة الضُّحى

عن جُنْدُبِ بنِ سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: اشتكىٰ رسولُ اللهِ ﷺ فلم يَقُمْ ليلتينِ أَو ثلاثًا، فجاءت امرأَةٌ فقالت: يا محمَّدُ؛ إِنِّي لأَرجو أَن يكونَ شيطانُكَ قد ترككَ، لم أَرَهُ قربَكَ منذُ ليلتينِ أَو ثلاثةٍ؛ فأَنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. متَّفقٌ عليه.

قوله: (فلم يَقُمْ ليلتينِ أَو ثلاثًا) أي لم يُصِبْ حظَّه من صلاة اللَّيل؛ فانقطع عن دَأبه بالصَّلاة ليلًا ليلتين أو ثلاثًا.

۞۞۞۞

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

أقسم الله تعالىٰ بالضُّحىٰ، وهو اسم ضوء الشَّمس إذا أشرق وارتفع، والمراد به هنا النَّهارُ كلُّه.

تصرُّف لفظ (الضُّحىٰ) وقع في القرآن علىٰ نوعين اثنين:

أحدهما: عامٌّ، يراد به النَّهار كلُّه، وذلك إذا ذُكر مقابلًا للَّيل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾[النازعات]، فالضُّحىٰ هنا هو النَّهار كلُّه.

والآخر: خاصٌّ، يراد به أوَّلُ النَّهار، وذلك إذا لم يقابَل بذِكْر اللَّيل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾[النَّازعات].

۞۞۞۞

وباللَّيل إذا سكنَ بالخلق وثبتَ ظلامه = علىٰ اعتنائه برسوله ﷺ، فقال جوابًا للقسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركَكَ ربُّك، وما أبغضك بإبطاءِ الوحي وتأخُّرِه عنك.

وهٰذا له من ربِّه في الدُّنيا؛ ثمَّ بشَّره بما له في الآخرة؛ فقال: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ فلَلدَّار الآخرة خير لك من دار الدُّنيا، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾ من مظاهر الإنعام ومقاماتِ الإكرام في الآخرة ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾، وإلىٰ هنا تمَّ جواب القسم بِمُثْبَتَين بعد منفيَّيْنِ.

قوله : (وإلىٰ هنا تمَّ جواب القسم بِمُثْبَتَين بعد منفيَّيْنِ.).

أمَّا المنفيان:

فالأوَّل منهما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي ما تركك.

والثَّاني في قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك.

وأمَّا المثبتَان:

فالأوَّل في قوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

والثَّاني في قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ .

۞۞۞۞

ثُمَّ شَرَعَ يُذكِّرُهُ بما امتنَّ به عليه في الدُّنيا فقال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ﴾ استفهامَ تقريرٍ؛ أي وجدك ﴿يَتِيمٗا﴾ لا أُمَّ لك ولا أب؛ بل مات أبوه وأُمُّه وهو صغيرٌ لا يقدر علىٰ القيام بمصالح نفسه، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ عبده إليه وكفَّله جدَّه عبد المطَّلب، ثمَّ لَمَّا مات كفَّله عمَّه أبا طالبٍ، حتَّىٰ أيَّده بنصره وبالمؤمنين.

قوله: (وَكفَّله جدَّه عبدَ المطَّلب، ثمَّ لَمَّا مات كفَّله عمَّه أبَا طالبٍ) الإتيانُ بهذا الحرف علىٰ هٰذا البناء المضعَّف فيه إشهادُ القلب للامتنان، فإنَّ عبد المطلب وأبا طالب لم تكن لهما منَّة الابتداء علىٰ النَّبي ﷺ بالكفالة؛ ولٰكنَّ المنَّة هي لله عَزَّوَجَلَّ، ولهٰذا قال الله لما ذكر مريم: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، فالمنَّة في كفالة زكريا لمريم هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يُقل: وكفَلها زكريَّا. للإظهار هٰذا الامتنان علىٰ مريم.

القراءة الثَّانية بالحرف بالتَّخفيف دون التَّشديد تكون بدون ملاحظة هٰذا المعنىٰ، وهٰذا يأتي في القرآن، فإنَّ إحدىٰ القراءتين تكون لملاحظة معنىٰ والأخرىٰ لملاحظة معنًىٰ آخر؛ فقراءةُ التَّشديد فيها زيادة معنىٰ؛ وهي إثبات منَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا قراءة التَّخفيف ففيها الإخبارُ عن وقوع الكفالة، فقراءة التَّشديد أبلغ من قراءة التَّخفيف، وهٰذا واقع في كثيرٍ من أحرف القراءات كـ ﴿مالك يوم الدِّين﴾ و﴿ملك يوم الدِّين﴾، ففي (مالك) معنًىٰ غير الذي في (ملك)، وأكثر من يتعاطىٰ التَّفسير إذا ذكر القراءات إنَّما يذكرها لتعديد وجوه القراءة بها

دون الاهتمام بالتَّوفيق بين المَعنيين، و ما يكون في أحد الحرفين من الزِّيادة عن الآخر.

۞۞۞۞

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ لا تدري ما الكتابُ ولا الإيمان، ﴿فَهَدَىٰ﴾ وأنزل عليك الكتاب والحكمة، وعلَّمك ما لم تكن تعلم.

هٰذه الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ فسَّرتْها آيتان اثنتان بمقتضىٰ ما ذكره مصنِّفُ الكتاب.

فأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي لا تدري ما يرادُ بك، ففسَّرها قوله تعالىٰ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورىٰ:٥٢].

وأمَّا قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ففسرها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء:١١٣]، فإنَّ أعظم هدايةٍ أصابها النَّبي ﷺ هي هدايتُه إلىٰ مقام النُّبوَّةِ والرِّسالةِ وإنزالِ الكتاب عليه.

۞۞۞۞

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما ساق إليك من الرِّزق، وقنَّعك به.

قوله: (﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما ساق إليك من الرِّزق، وقنَّعك به.) فيه بيان أنَّ الغنىٰ التَّام مركَّب من شيئين اثنين:

أحدهما: رِزقٌ يحصِّل به العبدُ مصالِحَه.

والثَّاني: قناعةٌ تَقْطَعُ قلبَه عن الطَّمع فيما سواه.

فالعبد إن رُزِقَ ما فيه مصلحتُه ومنفعتُه، ولم تتهيَّأ له القناعة، لم يكن غنيًّا علىٰ الحقيقة، ولأجل هٰذا رُدَّ الغِنَىٰ كلُّه إلىٰ غنىٰ النَّفس؛ كما قال النَّبي ﷺ في الصَّحيح : «الغنىٰ غنىٰ النَّفس».

۞۞۞۞

ومَن آواك وهداك وأغناك فحقُّه مقابلة نعمته بالشُّكر؛ ومِنه ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي لا تغلبْه مُسيئًا معامَلته، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ عن دينٍ أو دنيا ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ أي تزجُر، بل اقض حاجته أو رُدَّه برفقٍ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مُخبرًا عنها، فإنَّ التَّحدُّث بنعمة الله، داعٍ لشكرها، وسببٌ في محبَّة القلوب لمن أسداها، فإنَّ القلوب مجبولةٌ علىٰ محبَّة المحسِن إليها.

۞۞۞۞

تفسير سورة الشَّرح

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾﴾

يقول اللهُ تعالىٰ -ممتنًّا علىٰ رسوله ﷺ-: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ استفهامَ تقريرٍ؛ أي شرحنا صدرك للإسلام، وهو ناشئٌ عن شرح صدره الحسِّيِّ، الَّذي وقع مرَّتين أُولاهُما في صغره لَمَّا كان مُسترضَعًا في بني سعدٍ، والأُخرىٰ ليلة أسري به في مكَّة بين يدي الإسراء، وكلاهما رواه مسلمٌ، ووافقه البخاريُّ في الثَّانية.

ذكر المصنِّف في بيان هٰذه الآية أنَّ الشَّرح الواقع للنَّبي ﷺ في صدره نوعان اثنان:

الأول شرح جسماني إذْ شُقَّ صدرُه الشَّريفُ ﷺ مرَّتين:

أولاهُما في صِغره لما كان مُسترضَعًا في بني سعد.

الأخرىٰ ليلة أسري به في مكَّة بين يدي الإسراء والمعراج.

والثَّاني شرح رَوْحاني إذْ حُشي قلبه ﷺ بالمعارفِ الإيمانيَّة والكمالاتِ الدِّينيَّة لما احتوىٰ من كمال الإدراك لحقائق الدِّين وملازمةِ سبيلِ كُمَّلِ خلقِ ربِّ العالمين.

والشَّرح الأوَّل تَقْدُمةٌ موطِّئةٌ للشَّرح الثَّاني، فإنَّ شرح النَّبي ﷺ في صدره الجسماني وقع للإرادة حشو قلبه بالحقائق الإيمانية والكمالات الدِّينية المُثمرة للشَّرح الرَّوْحاني.

۞۞۞۞

﴿وَوَضَعۡنَا﴾ أي حططنا ﴿عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ وهو الذَّنب، ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ﴾ أي أثقل ﴿ظَهۡرَكَ﴾.

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ فأعلينا قدْرَك، وجعلنا لك الثَّناءَ الحسن، بما أشاع اللهُ من محاسن ذِكره بين النَّاس، وبما نَزل من القرآن ثناءً عليه وكرامةً له، وبإلهام النَّاس التَّحدُّثُ بما جبله الله عليه من المحامد في أوَّل نشأته، ومن أعظم ذلك أنَّه قرَن ذكره بذكر الله في الشَّهادتين، وله في قلوب أُمَّته من المحبَّةِ والتَّعظيم بعدَ الله تعالىٰ ما ليس لأحدٍ سواه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ﴾ وهو الشِّدة ﴿يُسۡرًا﴾ أي سُهولةً، والفاء فيه فصيحةٌ تُفصِح عن كلامٍ مقدَّرٍ يدلُّ عليه الاستفهام التَّقريريُّ هنا، أي إذا علمت هٰذا وتقرَّر؛ فاعلم أنَّ اليسرَ مصاحِبٌ للعسر، فالعسر الَّذي عَهِدتَه

وعلمتَه سيجعله الله يسرًا، والتَّنكير للتَّعظيم، وفي تكرارها بقوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تأكيدٌ لتحقيق اطِّراد هٰذا الوعد وعمومه.

العسر المذكور الذي وعد النَّبي ﷺ بأن يكون اليُسر مصاحبًا له هو ما كان يجري عليه ﷺ من المشقَّة والبلاء والعنت في دعوة الخلق، فهو عُسرٌ معهودٌ معلوم له ﷺ؛ فـ(أل) في قوله: ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ يراد بها العُسر المعهود الذي وقع له ﷺ، وتنكير اليُسر في الآيتين للدَّلالة علىٰ التَّعظيم، فإنَّ النَّكرة تقع في كلام العرب علىٰ مواقع عدَّة من المعنىٰ: منها إرادةُ التَّعظيم فلبيان عظمةِ اليُسرِ الذي سيكتنفه ﷺ قيل له: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليطمئنَّ قلبُه بذلك.

وما يذكرُه كثيرٌ من المفسِّرين بأنَّ تنكير اليُسْرِ وتعريفَ العُسر دالٌّ علىٰ أنَّ العُسر شيءٌ واحد، وأنَّ اليسر مختلفٌ، فتكون الآية قد ذكرت عُسْرًا واحدًا ويسرين اثنين.

هٰذا المعنىٰ الذي ذكروه بَنَوه علىٰ قاعدة غلِطوا في فهمها؛ وهي أنَّ المعرفةَ إذا أُعيدت في جملة ثانية فهي المعرفة نفسُها، بخلاف النَّكرة إذا أُعيدت في جملةٍ ثانية فليست هي الأولىٰ، فيكون العُسر المذكور في الآية الأولىٰ هو العُسرُ المذكور في الآية الثَّانية؛ فيكون شيئًا واحدًا، ويكون اليُسرُ المذكور في الآية الأولىٰ غيرُ اليسرِ المذكورِ في الآية الثَّانية، فيكون شيئين لا شيئًا واحدًا.

وهٰذه القاعدة شرطُها انفصالُ الجُمل وتجدُّدها، أمَّا إذا لم يقع الانفصال بين الجمل فإنَّ إعمالَها غلطٌ.

والآيتان وقعت إحداهما بعد الثَّانية، فالجملةُ هي الجملة؛ ولٰكِن وقع تكريرُها لتأكيد ما فيها من المعنىٰ، فإعمالُ القاعدة هنا غلطٌ، والمعنىٰ الذي ذكرهُ أكثر المفسِّرين فيها كما هو مشهور غلطٌ، وقد نبَّه إلىٰ هٰذا العلَّامة المحقِّق الطَّاهرُ بن عاشور رحمه الله تعالىٰ في «التَّحرير والتَّنوير».

۞۞۞۞

ثمَّ أمر الله رسولَه ﷺ بشكره، والقيام بواجبِ نِعمه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي إذا فرغتَ من عملٍ بإتمامه؛ فأقبِلْ علىٰ عملٍ آخر، لتعمُرَ أوقاتِك كلَّها بالأعمال الصَّالحة، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ فأعظِم الرَّغبة إليه في مُراداتِك مقبلًا عليه.

قوله: (مقبلًا عليه) وصْفُ الإقبال مستفادٌ من تعدية الفعل بحرف الجرِّ (إلىٰ)، فتقدير الجملة: ارغب إلىٰ ربِّك، ولمَّا عُدِّي الفعل بـ(إلىٰ) دلَّ علىٰ تضمُّنه علىٰ معنًىٰ آخر مقصودٍ، وهو الإقبالُ علىٰ الله، وتقدَّم أنَّ نُحاة البصرة اختصُّوا بملاحظة ما تفيده الحروف والأفعال من تضمين المعاني وإشرابها، وهٰذا أليق بكمال البَيان

القرآني، فإنَّ اللَّائقَ به جعله علىٰ أعلىٰ المعاني وأكملها وأرفعها كهذه الآية، فإنَّ (إلىٰ) هنا لا يُراد بها مجرَّدُ التَّعدية وإيقاع الفعل من العبد لله؛ بل هي تتضمَّنُ معنًى أجلَّ من مجرَّد إيقاع الفعل وهو إقبالُ القلب علىٰ الله؛ فيكون قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي توجَّه إليه راغبًا مُقبلًا عليه بقلبك.

تفسير سورة التِّين

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾

أقسم الله بالشَّجرتين المعروفتَين التِّين والزَّيتون؛ فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، مُريدًا مَنابِتَهما وهي أرضُ الشَّام، ثمَّ أقسم بجبل سِيناء فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ وهو الجبل الَّذي كلَّم اللهُ فيه موسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام، و«سينين» لغةٌ في سِيناء، وهي صحراءُ بين مصرَ وبلاد فلسطينَ،ثمَّ أقسم أُخرىٰ فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وهو مكَّة المكرَّمة لأمن النَّاس فيها، والإشارةُ إليه للتَّعظيم، ولأنَّ نزولَ السُّورة واقعٌ فيه، وهٰذه المواضعُ هي مواطنُ أكثرِ الأنبياء، فهي أرض النُّبوات ومَهْبَط الرِّسالات.

قوله: (فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، مُريدًا مَنابِتَهما وهي أرض الشَّام) المرشد إلىٰ هٰذه الإرادة قرنُها بموضعين اثنين هما: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي جبلُ سيناء، و﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ أي مكةُ المكرَّمة، فلمَّا قُرن ذكر الشَّجرتين بهذين الموضعين عُلم أنَّ المراد ليس مجرَّد ذكرهما؛ فالمناسبة حينئذ بين الآياتِ ضعيفة؛ لكن المراد هو منابتُ تلك الشَّجرتين وهي أرضُ الشَّام، فتكون السُّورة قد استفتحت بذكر مواضعَ ثلاثة كما سيأتي.

وقوله: (فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وهو مكَّة المكرَّمة لأمن النَّاس فيها، والإشارةُ إليه للتَّعظيم) مرادُه بقوله: (الإشارةُ إليه للتَّعظيم) يعني بذكر اسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ فلم يقل: والبلدِ الأمين؛ بل أدخل اسمَ الإشارة ﴿هٰذَا﴾ ليتضمَّن تعظيم المشارِ إليه، كما يتضمَّنُ الإعلامَ بأنَّ نزولَ السُّورة كان فيه، فلأجل إرادة هٰذين المعنيين من تعظيم البلد الأمين والإخبار عن أنَّ السُّورة نزلت فيه أُدخل اسم الإشارة قبل ذكر البلد الأمين بخلافِ نظيره المتقدِّم عليه وهو ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾.

وقوله: (وهٰذه المواضعُ هي مواطنُ أكثرِ الأنبياء، فهي أرضُ النُّبوَّات ومَهْبَط الرِّسالات) أي أنَّ الله ذكر

بلاد الشَّام أوَّلًا بالإشارة إلىٰ التِّين والزَّيتون، ثم ذكرَ جبل سيناء ثانيًا بالإشارة إليه بقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، ثم ذكر مكَّة المكرَّمة ثالثًا بالإشارة إليها بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ للدَّلالة علىٰ أن هٰذه المواضعَ الثَّلاثة اشتركت في كونها موطنَ أكثرِ الأنبياء ومهبطَ الرِّسالات.

وذهب جماعة من أهل العلم إلىٰ أنَّ ذكرَ هٰذه المواضع الثَّلاثة فيه إشارة إلىٰ ثلاثة من الأنبياء من أولي العزم:

فذِكْر التِّين والزَّيتون المُخبِر عن بلاد الشَّام فيه إشارة إلىٰ عيسىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وذكرُ طورِ سينين فيه إشارة إلىٰ ذكر موسىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فيه إشارة إلىٰ ذكر محمد ﷺ.

إلَّا أنَّ هٰذا القول مع أنَّه أُدرج في التَّحقيق عند جماعة فيه نظر لعدم اختصاص الشَّام بنبوَّة عيسىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ بل كانت الخليل بلدًا لإبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالمناسب للواقع القدري أن يقال: إنَّ هٰذه المواضعَ الثَّلاثة موطنُ أكثرِ الأنبياء.

۞۞۞۞

ثمَّ ذكرَ جواب القسم في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فسوَّاه الله وعدَلَه، وفطره علىٰ توحيده، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ في نار جهنَّمَ إن كفر.

قوله: (﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ في نار جهنَّمَ إن كفر) اختيارُ كون السُّفل المذكور في هٰذه الآية هو الردُّ إلىٰ نار جهنم إن كفر العبد هو المناسبُ للامتنانِ عليه المذكورِ في الآية المتقدِّمة عليها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ والتَّقويمُ الأحسنُ الذي خُلق فيه الإنسان يشمل أمرين اثنين:

الأوَّل تقويمٌ يتعلَّق بالصُّورة الظَّاهرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[الإنفطار].

والثَّاني: تقويمٌ يتعلَّقُ بالباطن وذلِك بجعله علىٰ الفطرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف:١٧٢] الآية.

فجمع الله ﷻ للعبد بين التَّقويم الأحسنِ له بالظَّاهر والباطن، والمناسبُ لهٰذا التَّقويم في مجموعه أن يكون الرَّد لمن كفر بإدخاله إلىٰ أسفل سافلين في نار جهنَّم؛ ليلحق به الضُّرُّ في باطنه وظاهره جزاء كُفرِه بالنِّعمةِ المسداة في الباطن والظَّاهر، وغيرُ هٰذا القول لا يتَّفق مع نسق الآي.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّهم لا يُردُّون إليها، بل جزاؤهم ما أخبر عنه بقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم أجرٌ لا يشوبُه كَدَر المنِّ، ولا يلحقُه الانقطاع، وذلك في جنات النَّعيم، ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فأيُّ شيءٍ يجعلُك أيُّها الإنسان مكذِّبًا بما جاءت به الرُّسلُ من الشَّرائع والمناهج، وما أُنْذِرْتَ به من الجزاء بالجنَّة والنَّار، وأنت قد خُلِقت في أحسن تقويمٍ، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في الفَصْل والقضاء بين عباده مَن آمن منهم ومَن كفر؟!

تفسير سورة العلق

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

صَدْرُ هٰذه السُّورةِ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ هو أوَّلُ القرآن نزولًا علىٰ رسول الله ﷺ؛ وكان ذلك في غارِ جبلِ حراءٍ بمكَّةَ، فإنَّه كان يتعبَّدُ فيه اللَّيالي ذواتِ العدد، فجاءه جبريلُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال له: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئٍ»، فأخذه فغطَّه حتَّىٰ بلغ منه الجَهد ثمَّ أرسلَه، فقال: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئٍ» فأخذه فغطَّه الثَّانية حتَّىٰ بلغ منه الجَهد ثمَّ أرسله، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئٍ فأخذَه فغطَّه الثَّالثةُ حتَّىٰ بلغ منه الجَهد ثمَّ أرسلَه، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، كما ثبت في «الصَّحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قوله: (وكان ذلك في غارِ جبلِ حراءٍ بمكَّةَ) حراء اسم للجبل وليس اسمًا للغار، وقد يُحذفُ علىٰ إرادة العلم فيقال: غار حراء، أي غار جبلِ حراءٍ، بتقدير كلمة جبل بينهما، فأصل الكلام: غار جبل حراء، أمَّا تسمية الجبل بجبل النُّور، والغار بغار حراء، فهي تسمية حادثة، ولم تكن العربُ تعرفُ هٰذا الجبل باسم جبلِ النُّور،

وإنَّما حدث في الأزمنةِ المتأخِّرة، وكأنَّه في زمن خلافة العثمانيين، ثم شاع إلىٰ اليوم.

والمختار الموافق لما عرفته العرب في لسانها -وهي أعلم بمساكنها من غيرها- تسمية الجبل بجبل حِراء، وهو الذي جاءت به الأدلَّة، فالجبل جبل حراء، والغار يضافُ إليه فيقال: غارُ حراء، علىٰ إرادةِ إضافةِ الجبل، وتقدير الكلام: غار جبل حراء.

والمنتسبون إلىٰ العلم ينبغي لهم أن يحقِّقوا المواضع بأسمائها التي عُرفت بها عند أهلها أو جاء الشَّرعُ بها؛ لأنَّ إحداث أسماءٍ أخرىٰ قد يغيِّر معالمَ الأرض، فتُسمَّىٰ الأرضُ التي أُنيطت بها أحكام شرعية ما بغيرِ اسمها المتبادر إليها في الوضع الشَّرعيِّ والعربي، فيفرِّقُ المشتغل بصنعة العلم بين الحقائق الشَّرعية واللُّغوية من حيثُ هي وبين الأحوالِ الطَّارئةِ من بعدُ عليها، فإنَّه قد طرأت في هٰذا الباب أشياءُ غَيَّرت أسماءً أُنيطت به أحكام، فالذي يُوقعها علىٰ غير الوضع الشَّرعي واللُّغوي يكون قد أوقعها علىٰ وجه الخطأ.

۞۞۞۞

فأمَرَه في فاتحتها أن يقرأ مستعينًا بالله، مستصحِبًا الفهمَ وملاحظةَ جلالِه، مأذونًا له، وقيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾؛ أي خلقَ الخلقَ جميعًا، ومنهم الإنسان، فإنَّه ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ والعَلَقةُ هي القطعةُ من الدَّمِ الغليظ، وذكرُ خلقِ الإنسان بعد الأمر بالقراءةِ: إشارةٌ إلىٰ الأمرِ بالعبادة، فمن خلقَ الإنسان لم يكن ليتركه سُدًى؛ بل سيأمرُه وينهاه، وذلك بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب.

ثمَّ قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ المتَّصفُ بغاية الكرم، ومن كرمه ﷻ أنَّه هو ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فإنَّ الله أخرجَه من بطن أُمِّه لا يعلم شيئًا، وجعل له السَّمع والبصر والفؤاد، فعَلِم ما لم يكن يعلمُه من قبلُ، ومن أعظمِ أسباب عِلمه تعليمُه القلمَ وهو الخطُّ والكتابة.

ولكنَّ الإنسان الظَّلوم الجهول يَطغىٰ متجاوِزًا حدَّه، ويُعرِض عمَّا أُمر به ونُهيَ عنه، إذا رأىٰ نفسَه غنيًّا بما أنعم الله عليه، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾، ثمَّ تهدَّده وتوعَّده فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾؛ أي إلىٰ اللهِ المصيرُ والمرجعُ، وسيُجازي كلَّ إنسانٍ بعمله.

ومن جنس الإنسان من تسوءُ حاله فيُعارض الأمر والنَّهي فوقَ إعراضه عنه، كمن ينهىٰ عن الصَّلاة الَّتي هي من أفضل الأعمال، كما قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ﴾ أيُّها النَّاهي ﴿إِن كَانَ﴾ العبدُ المصلِّي ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ﴾ غيرَه ﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢﴾، أيستقيمُ أن يُنهىٰ من هذا وَصْفُه؟ أرأيتَ أعجبَ مِن طغيانِ هذا النَّاهي؟!

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾ النَّاهي بالحقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فأعرضَ عن الأمر والنَّهي، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ عملَه؟ فهو مطَّلِعٌ عليه محيطٌ به!، أفلا يخاف اللهَ ويخشىٰ عقابَه ؟!

ولَئِن لم ينزجِر بالوعيد فَلْيَسَعْه التَّهديدُ إن استمرَّ علىٰ حاله، كما قال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عمَّا يقولُ ويفعل ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي لنأخُذَنَّ بناصيته – وهي مقدَّم شعره – أخذًا عنيفًا، فالسَّفع: القبض الشَّديدُ بجذبٍ، واستحقَّته ناصيته لاتِّصافها بوصفين هما المذكوران في قوله: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ فهي كاذبةٌ في قولها، خاطئةٌ في فعلها، ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾ هذا الأثيمُ ﴿نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ وهم أهل مجلسه؛ فإنَّنا ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ وهم ملائكة العذاب، ليأخذوه ويعاقبوه، سمُّوا زبانيةً لأنَّهم يَزْبُنون النَّاسَ أي يدفعونهم بشدَّة.

والآيات السَّابقة نزلت في شأن أبي جهلٍ حين نهىٰ رسولَ الله ﷺ عن الصَّلاة وتهدَّده، كما روىٰ التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي عند المقام، فمرَّ به أبو جهلٍ بنُ هشامٍ فقال: يا محمَّد ألم أنهك عن هٰذا؟ وتوعَّده، فأغلظ له رسولُ الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمَّد! بأيِّ شيءٍ تُهدِّدني؟ أمَا واللهِ إنِّي لَأكثرُ هٰذا الوادي ناديًا؛ فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾، وقال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لو دعا نادِيَه لأخَذَتْه ملائكةُ العذاب من ساعته، وأصله في البخاريِّ مختصرًا.

ولـمَّا فرغ من وعيد النَّاهي وتهديدِه أتْبَعَه بأمر المنهيِّ –وهو العبد المصلِّي– أن لا يطيعَ ناهيه فقال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ فيما ينهاك عنه، ثمَّ أمرَه بما فيه فلاحُه فقال: ﴿وَٱسْجُدْ ﴾ لربِّك ﴿ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ منه بالصَّلاة؛ فإنَّ العبدَ أقربُ ما يكونُ من ربِّه وهو ساجدٌ، كما ثبت في «صحيح مسلمٍ» عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهوَ ساجدٌ؛ فأكثروا الدُّعاءَ».

تفسير سورة القَدْر

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

يُخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه السُّورة عن إنزال القرآن، فيقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآنَ جُملةً واحدةً من اللَّوح المحفوظ إلىٰ السَّماء الدُّنيا، وفي إسناد الإنزال إلىٰ الله تشريفٌ عظيمٌ للقرآن،

قوله: (فيقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآنَ جُملةً واحدةً من اللَّوح المحفوظ إلىٰ السَّماء الدُّنيا) فالإنزال

المذكور في هٰذه الآية هو إنزال القرآن مكتوبًا من اللَّوح المحفوظ إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا، وليس المرادُ ابتداء إنزاله علىٰ النَّبيِّ ﷺ.

۞۞۞۞

﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي الشَّرف العظيم، وهو اسمٌ جعله الله للَّيلة الَّتي أنزل فيها القرآن، ولم تكن معروفةً عند المسلمين، فذكرها بهذا الاسم تشويقًا لمعرفتها، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ فاستفهمَ عنها تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لمقدارها.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أُنزِلَ القرآنُ جُملةً إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا في ليلةِ القَدْرِ، ثُمَّ أُنزِلَ بعدَ ذلكَ في عشرينَ سنةً، قالَ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان]، وقرأَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]. رواه النَّسائيُّ في «السُّنن الكُبرىٰ»، وإسناده صحيحٌ.

وهي ليلةٌ مباركةٌ من ليالي رمضان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[الدخان]، وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة]، وسُمِّيت ليلةَ القدر؛ لشرفها، ولأنَّه يُقدَّر فيها ما يكون بعدها من المقادير كالآجال والأرزاق.

وفي تشريف زمانِ إنزاله تشريفٌ ثانٍ للقرآن يُظهِر علوَّ قَدْره عند الله تعالىٰ.

تعظيم القرآن في هٰذه السورة وقع من جهتين:

أُولاهما إسناد إنزاله إلىٰ الله في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

والثَّانية في تشريفه بالإنزالِ في زمنٍ معظَّمٍ في قوله: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

۞۞۞۞

ثمَّ أخبر الله عن فضلها بقوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فالقيام فيها إيمانًا واحتسابًا خيرٌ من عمل ألف شهرٍ ليس فيها ليلةُ قدْرٍ، ومجموع مدَّتها ثلاثٌ وثمانون سنةً، وأربعةُ أشهرٍ.

قوله : (فالقيام فيها إيمانًا واحتسابًا خيرٌ من عملِ ألف شهرٍ ليس فيها ليلةُ قدْرٍ) أصحُّ من إطلاقِ غيرِه في قولهم: فالعمل فيها خيرٌ من عمل ألف شهر. فيكون العمل الواقع في ليلة القدر مختصٌّ بجنس أم عام بأجناس كثيرة؟ إطلاقه يوهم العموم، العمل فيها بكلِّ شيء من الصَّدقة وصلة الأرحام وبر الوالدين..؛ لٰكِن قولنا: (فالقيام فيها إيمانًا واحتسابًا) يكون العمل مختصًّا بالقيام؛ يعني بالصَّلاة فيها إيمانًا واحتسابًا، وبأيّهما جاءت النُّصوص؟ بالثَّاني وهو التَّخصيص.

فإذا قال قائل: ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: يا رسول الله؛ أرأيت إن أدركتُ ليلة القدر فما أقول: فقال: «قولي: اللَّهمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعف عنِّي» فهٰذا فيه ذكر عمل ثانٍ غير الصَّلاة وهو الدُّعاء، فما الجواب؟

الجواب عن ذلك من وجهين اثنين:

أحدهما: أنَّ الدُّعاء مندرجٌ في الصَّلاة فيكون فردًا من أفراد العام، أُفرِدَ اهتمامًا به.

والثَّاني: أنَّ هٰذا الحديث الذي رواه أصحاب السُّنن حديثٌ ضعيفٌ لانقطاعه، ومن صحَّحه فإنَّه لم يتفطَّن إلىٰ ما في سنده من الانقطاع.

۞۞۞۞

وتلك اللَّيلةُ هي في رمضانَ، وفي العشر الأواخر منه، وأرجاها: أوتارُها، وهي باقيةٌ في كلِّ سنةٍ إلىٰ قيام السَّاعة.

ثُمَّ ذكر الله فضلًا آخرَ لها في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من السَّماء، ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي في تلك اللَّيلة، والرُّوح هو جبريلُ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمره ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قضاه الله في تلك السَّنةِ إلىٰ السَّنة الَّتي بعدها، وتلك اللَّيلة ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ أي سلامةٌ، والسَّلامة تشمل كلَّ خيرٍ يتَّصل، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ فمُبتدؤها: غروبُ الشَّمس ومنتهاها: طلوعُ الفجر، وفي التَّعريف بمنتهاها حثٌّ علىٰ اغتنام فضلها قبلَ انتهاء وقتها.

قوله: (وفي التَّعريف بمنتهاها حثٌّ علىٰ اغتنام فضلها قبلَ انتهاء وقتها) أي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشار إلىٰ الغاية الَّتي تنتهي إليها هٰذه اللَّيلة ولم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المبتدأ، والحامل علىٰ ذلك الإغراء بالاهتمام بالقيام بالصَّلاة في هٰذه اللَّيلة وتدارك وقتِها قبل خروجه.

۞۞۞۞

تفسير سورة البيِّنة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

كان كفَّارُ أهل الكتاب يقولون: سيُبعث فينا رسولٌ، وكان المشركون يقولون لهم إذا دَعوهم إلىٰ اتِّباع اليهوديَّة أو النَّصرانيَّة: لم يأتنا رسولٌ كما أتاكم، فأخبر الله في هٰذه السُّورةِ عن قولهم موبِّخًا، فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهودُ والنَّصارىٰ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم، أي زائلين عمَّا هم عليه، تاركين له، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ وهي الحجَّةُ الواضحة الَّتي وُعِد بها اليهود والنَّصارىٰ في كتبهم، وتلقَّفها عنهم المشركون، ثم فسَّرَ تلك البيِّنة فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ وهو محمَّدٌ ﷺ.

هٰذه الآية وهي الآية الأولىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ قال فيها الرَّازي: هي أغمضُ آيةٍ في القرآن. ووقع المفسِّرون فيها في حيرةٍ شديدة، لماذا؟

لأنَّ المعنىٰ المتبادَر منها أنَّه لا يزالُ أهلُ الكتاب والمشركون في كفرهم زائلين عن الحق حتىٰ تأتيهم البيِّنة؛ يعني جعلت غاية بقائهم زائلين عن الحق كافرين بالله إلىٰ أن تجيء البيِّنة، وهٰذا يقتضي أنَّه إذا جاءتهم البيِّنة ماذا يكون؟ سيرجعون إلىٰ الحق فيسلمون ويؤمنون، وهل وقع هٰذا؟ لم يقع فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

واضح الإشكال الذي في الآية؟ أنَّ الآيةَ يُتوهَّم منها أنَّها خبرٌ عن حال كفار أهل الكتاب و المشركين من أنَّهم سيبقون زائلين عن الحق مخالفين لما أمرهم الله به من الدِّين حتىٰ تأتيهم البيِّنة التي هي الرَّسولُ، فإذا جاءهم فإنَّهم سيرجعون إلىٰ الحقّ، والواقع خلاف ذلك.

القرافي يقول: والإشكالُ علمٌ، يعني استشكال شيءٍ هٰذا علم بحدِّ ذاته، لذلك من المفسِّرين من تحيَّر فيها وتوقَّف في معناها، وهٰذا يبيِّن مقدار قول الرَّازي: إنَّها أغمضُ آية في كتاب الله، ما الجواب في حلِّ هٰذا الإشكال؟

ألم نَقُل: (فأخبر اللهُ في هٰذه السُّورة عن قولهم موبِّخًا) يعني أن هٰذا الذِّكرَ لحالهم جاء علىٰ جهة التَّوبيخِ لهم، فإنَّ أهل الكتاب كانوا يقولون: إنَّه سيُبعث فينا رسول فنتَّبعه، وكفَّار مشركي يقولون: إنَّه لم يبعث فينا رسول، فإذا بُعث إلينا رسولٌ اتَّبعناه، فأخبر الله ﷻ عن حالهم علىٰ وجه التَّوبيخ، لا علىٰ إرادة بيان حقيقة مآلهم بأنهم سيسلمون.

۞۞۞۞

ثم فسَّر تلك البيِّنةِ فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ وهو محمَّدٌ ﷺ، الَّذي يتلو ما هو مكتوبٌ في صحفٍ مطهَّرةٍ، منزَّهةٍ عن كلِّ ما لا يليق، وهي صحفُ الكتاب المكنونِ في اللَّوح المحفوظ، ومتلوُّ النَّبيِّ ﷺ منها هو القرآن الكريم.

فالبيِّنة المذكورة في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هي المفسَّرة في الآية التَّالية ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وهٰذه الصُّحف لا يراد بها الألواح والرِّقاع واللِّخاف التي كان يكتب فيها القرآن في زمن النَّبي ﷺ، بل هٰذا اللَّفظ إذا أطلق فالمراد به اللَّوح المحفوظ كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾[عبس]، والصُّحف المكرَّمة التي هي بأيدي سفرة إنَّما هي ما في اللَّوح المحفوظ، فالصُّحف المطهَّرة المذكورة في القرآن هي صحف الكتاب المكنون في اللَّوح المحفوظ، والنَّبي ﷺ تلا ممّا هو مكتوب في اللَّوح القرآنَ الكريم الذي أنزله الله ﷻ عليه، فيكون متلوُّ النَّبيِّ ﷺ هو بعضُ ما في اللَّوح المحفوظ من الكتب المنزَّلة علىٰ الأنبياء وهو القرآن الكريم.

✡✡✡✡

وتلك الصُّحف ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي مستقيمةٌ، وهي الكتب الَّتي أنزلها الله مع النَّبيين، كما قال ﷿: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

قوله: (وتلك الصُّحف ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي مستقيمةٌ) إشارة إلىٰ أنَّ تلك الكتب الكائنة في صُحف اللَّوح المحفوظ هي الكتبُ المنزَّلةُ علىٰ الأنبياء، وإذا تقرَّر هٰذا المعنىٰ فإنَّ:

الإشارةَ إلىٰ القرآن الواقعةِ فيه علىٰ إرادة الإشارةِ للبُعد فهي إشارةٌ إليه حالَ كونه مكتوبًا في صُحفِ اللَّوحِ المحفوظ.

وإذا أُشيرَ إليه علىٰ إرادةِ القريب فالمراد به القُرآن حالَ مكتوبه في الصُّحفِ التي بأيدينا.

يعني قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، إشارة إلىٰ القرآن حال كتابته في اللَّوح المحفوظ، وإذا أشير إليه بما يدلُّ علىٰ القُرب في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩] فالإشارة هنا إلىٰ القرآن الذي هو في الصُّحف التي بأيدينا.

وبهذا تأتلف آيات القرآن، وتقع فيها الإشارة إليه علىٰ هٰذين المعنيين، فمن يفسر قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هٰذا، فهو غلط؛ لأنَّ المشار إليه هنا بعيد، فتفسيره بما يدلُّ علىٰ الإشارة إلىٰ قريبٍ غلطٌ.

وحاصل ذلك أنَّ الإشارة إلىٰ القرآن الكريم وقعت في آياته علىٰ نوعين اثنين:

الأوَّل الإشارة إليه بما يدلُّ علىٰ بُعده؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

والثَّاني الإشارة إليه بما يدلُّ على قُربه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

فإذا أشير إليه بالبعد فالمراد حال لكونه مكتوبًا في صحف اللَّوح المحفوظ.

وإذا أشير إلىٰ القُرب فالمراد به حال كونه في الصُّحف التي بأيدينا.

۞۞۞۞

ثمَّ أخبر عن سبب كفر أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾، وهٰذه البيِّنةُ هي بيِّنةٌ أُخرىٰ غيرُ الأُولىٰ.

وقوله: (وهٰذه البيِّنةُ هي بيِّنةٌ أُخرىٰ غيرُ الأُولىٰ) أي البيِّنة المذكورة في هٰذه الآية غيرُ البيّنة التي ذُكرت في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ وهي محمَّدٌ ﷺ خلافًا لما انتحلَه أكثرُ المفسِّرين؛ فزعموا ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فمنهم من آمن ومنهم من كفر أن أهل الكتاب لم يتفرقوا، إلا بعد مجيئه ﷺ، وكان تفرُّقهم بإيمان بعضِهم وكفرِ بعضِهم، وهٰذا يكذِّبُه الأثرُ والنَّظرُ:

فأمَّا الأثر فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبرَ في الأحاديثِ الصِّحاح بأنَّ اليهود تفرَّقت علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وأنَّ النَّصارىٰ تفرَّقت علىٰ اثنتين وسبعين فرقة.

وأمَّا النَّظر فإنَّ العارف بتاريخِ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ يقطع بأنهم كانوا مفترقين أشتاتًا قبلَ بعثة النَّبي ﷺ.

والدَّليلُ علىٰ تصحيحِ هٰذا المعنىٰ أنَّ من قواعدِ علم المعاني أنَّ المعرفةَ إذا أُعيدت مرَّةً أخرىٰ في جملة ثانيةٍ منفصلةٍ عن الأولىٰ فإنَّ المذكورَ فيها هو غيرُ المذكور في الجملة الأولىٰ، والله ﷻ قد ذكر البيِّنة في جملتين منفصلين، فيكون لكلِّ واحد من الكلمتين معنًىٰ آخرُ غيرُ المعنىٰ المتقدِّم، فيكون المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ غيرُ المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فالبيِّنة الأولىٰ هي محمَّد ﷺ، وأمَّا البيِّنة الثَّانية سيذكرها المصنِّف بعد.

۞۞۞۞

فالبيِّنة هنا الحُجج والآيات الَّتي جاءتهم من قبل، فاختلفوا فيها وتفرَّقوا عنها، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران].

البيِّنة الثَّانية هي الحجج والآيات التي جاءت أهل الكتاب قبل ذلك، كما يدلُّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ والمراد بهم أهل الكتاب، فقد جاءتهم الحجج والبيِّنات

من قبل فافترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة وافترقت النصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة.

۞۞۞۞

ولم يأمرهم هذا الرَّسول إلا بما أُمروا بـه مـن قبـلُ في كتـبهم، كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي قاصدين بعبادَتهم وجهه، ﴿حُنَفَآءَ﴾ مُقبلين عليه مائلين عمَّا سـواه، ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾، وخَصَّهما بالذِّكر لفضلِهما وشرفِهما.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ المأمور به -من إخلاص الدِّين وإقامةِ الصَّلاة وأداءِ الزَّكـاة- هـو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ أي ديـن الكتب القيِّمة، وهو الإسلام، فلا عُذرَ لهم في الإعراض عنه.

قوله: (أي دين الكتب القيِّمة) فيه إشارة بتعلق القيِّمة بموصوف سابق وهو الكتب المذكور أولا، فمعنىٰ ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي دينُ الكتبِ القيِّمة التي كُتبت في اللَّوح المحفوظ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ دين الأنبياء واحدٌ، فهٰذه الآية ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ متعلِّقة بقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ فالدين المذكور هنا هو دين الكتب القيمة المذكورة في اللَّوح المحفوظ وهو دين الأنبياء جميعا: الإسلام.

۞۞۞۞

ثمَّ ذكر جزاء الكافرين بعدما جـاءتهم البيِّنـة، فقـال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾، والبريَّة: الخليقة.

وأتبعه بذكرِ جزاءِ مخالفيهم، فقـال:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي جنَّاتُ إقامةٍ، لا يتحوَّلون عنها، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي من تحـتِ أشـجارها وغُرفهـا، علىٰ وجه أَرضِها في غير شقٍّ.

ما معنىٰ (علىٰ وجه أرضها في غير شقٍّ)؟ ليس له أخدود، لا يجري في أخدود قد حُفِر له، ما الدَّليل علىٰ ذلك؟

دليل ذلك شيئان اثنان -وإنَّما ذكرتُ هٰذا؛ لأنَّ بعض المعاصرين، قال: إنَّه لا يصح حديث في ذلك، فلا يفسَّر القرآن بذلك- :

أحدهما أنَّ هٰذا التَّفسير مأثورٌ عن التَّابعين كمسروقِ بن الأجدع وغيره.

والتَّابعون إنَّما أخذوا التَّفسيرَ عن الصَّحابة الذين أخذوه عن النَّبي ﷺ، فإذا عُرف هٰذا عن التَّابعين من غير نكير بينهم تعيَّن أن يكون هو الصَّواب، فإنَّهم لا يتكلَّمون في القرآن بمجرَّد الأهواء، وهٰذا يبيِّن أهمية العناية

بالآثار في تفسير القرآن، فقد تقدَّم هٰذا المعنىٰ في «مقدمة أصول التَّفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والثَّاني ما رواه أحمد بسندٍ صحيح رجاله رجال مسلم من حديث أنس أنَّ النَّبي ﷺ قال: «أُعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري ولم يُشقَّ شقًّا» ، وإلحاقُ صفةِ بقيةِ أنهارِ الجنة به أولىٰ؛ لأنَّه أعظمها .

۞۞۞۞

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فرضيَ عنهم بما عمِلوا من طاعته، ورضوا عنه بما أثابهم به من النَّعيمِ المقيم، وإنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاءَ الحسنَ حقٌّ ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ فلا ينالُه إلَّا من كانت هذه صفته، والخشيةُ خوفٌ مقرونٌ بعلمٍ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الزَّلزلة

عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وأبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه قاعدٌ فبكىٰ أبو بكرٍ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «ما يُبكيك يا أبا بكرٍ؟»، فقال: أبكتني هذه السُّورة، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو أنَّكم لا تُخطئون ولا تُذنبون لخلقَ اللهُ تعالىٰ أُمَّةً من بعدكم يُخطِئون ويُذنبون فيغفرَ لهم». رواه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير»، وإسناده حسنٌ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

ذكر اللهُ تعالىٰ ابتداءَ حالِ الأرضِ يومَ القيامة فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾، فرُجَّت رجًّا شديدًا، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ وهو ما في بطنها فألقتْه علىٰ ظهرها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مستعظِمًا حالها: ﴿مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾؛ أي ما الَّذي حدَث لها؟ وما عاقبته؟

ولا تكون زلزلتُها كلِّها إلَّا يومَ القيامة.

قوله: (ولا تكون زلزلتُها كلِّها إلَّا يومَ القيامة) الزَّلزلة التي تطرأُ علىٰ الأرض نوعان:

الأوَّل: زلزلةٌ فيها؛ تتقيَّد بناحية من نواحيها، وهي جميعُ الزَّلازلِ التي تكونُ قبل يوم القيامة.

والثَّاني: زلزلة الأرض جميعِها، وهي الزَّلزلةُ التي تكون يومَ القيامة، فلا تختصُّ بناحيةٍ دون ناحية؛ بل تشمل الأرضَ جميعًا، ولاختصاصِها بتلك الحال أُفردت بهٰذه السُّورة، فالزَّلزلة المذكورة في السُّورة هي زلزلةُ الأرض يومَ القيامة.

۞۞۞۞

ولا تكون زلزلتُها كلِّها إلا يومَ القيامة. كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فتُخبر بما عُمِل علىٰ ظهرها من خيرٍ وشرٍّ، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي أمرها أن تُخبر به، فلا تعصي أمره.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ منصرِفين من موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي أصنافًا متفرِّقين، ومقصود صرفهم: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ فيُريَهم الله ما عملوا من الحسناتِ والسَّيئاتِ، ويُجازيهم عليها، فَلِمحسنهم النَّعيم المقيم، ولمسيئهم العذاب الأليم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وهي النَّملة الصَّغيرة ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ أي يره ويرَ ثوابه في الآخرة، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ أي يره وير عقابه فيها.

قوله في الموضع الأوَّل: (أي يره ويرَ ثوابه في الآخرة)، وفي الثَّاني (أي يره وير عقابه فيها) إشارة إلىٰ الجمع بين رؤية العمل ورؤية ثوابه وعقابه، فإنَّ العبد يُطلَع يوم القيامة علىٰ عمله، ويُطلع أيضًا علىٰ جزائه من الثَّواب والعقاب، فقصر بيان هاتين الآيتين علىٰ رؤية الجزاء من الثَّواب والعقاب تركٌ لبعض دلالتها، فالإطِّلاع كائن علىٰ العمل وعلىٰ جزائه .

۞۞۞۞

وروىٰ النَّسائيُّ في «السُّنن الكبرىٰ» عن صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَدِمتُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، قالَ: ما أُبالِي أَلَّا أَسمعَ غيرَها، حَسْبِي حَسْبِي، وإسناده صحيحٌ.

۞۞۞۞

تفسير سورة العاديات

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ

ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

أقسم اللهُ تبارك وتعالىٰ بالخيل الجارياتِ في سبيل الله، فقال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ أي العَادِيَـاتِ عَـدْوًا بليغًا قويًّا، يصدر عنه الضَّبْح، وهو صوت نَفَسها في جوفِها، عند اشتداد عَدْوها، ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ﴾ الموقِداتِ بحوافرهنَّ ما يطأنَ عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا ﴿٢﴾﴾، فتقدح النَّار ويتوقَّدُ شررُها من ضرب حوافرهنَّ إذا عَدْون، ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ المباغتات الأعداء بما يُكره ﴿صُبْحًا ﴿٣﴾﴾؛ فإنَّهم كانوا لا يُغيرون علىٰ القوم إذا غزوا إلا بعد الفجر، فتكونُ الغارةُ صباحًا، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي هيَّجنَ وأصعدنَ بعدْوِهنَّ وغارتهن ﴿نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ وهو الغبار، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي تَوَسَطْن براكبهنَّ ﴿جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ وهم الأعداء الَّذين أُغيرَ عليهم.

والقَسَمُ بالخيل علىٰ تلك الأوصاف لأجل التَّهويل، وترويع المشركين بما أُعدَّ لهم من الجهاد وآلته.

وجواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ أي لكفورٌ لنعمةِ ربِّه، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسانُ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الكفر ﴿لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ في فَلَتات أقواله وأفعاله، فيبدو منها علىٰ لسانه وفي تصرُّفاته ما يتضمَّن الشَّهادةَ علىٰ نفسه بكفر نعمة ربِّه، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ وهو المال ﴿لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾؛ أي كثير الحبِّ له، وحبُّه إيَّاه حملَه علىٰ البخل به، فصيَّره كفورًا.

ولهذا قال الله تحذيرًا له وتخويفًا: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هذا الكفور عن عقابه ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ أي أُثيرَ ما فيها، وأخرجَ اللهُ الأموات منها، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ فجُمع وأُحصي ما فيها من كمائن الخير والشَّرِّ، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ أي مُطَّلِعٌ علىٰ أعمالهم، ومجازيهم عليها، وخَصَّ خُبْرَه بيوم القيامة حين تُبعثرُ القبور ويُحصَّل ما في الصُّدور، مع أنَّه خبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ، لأنَّ المراد: الجزاءُ بالأعمال النَّاشئُ عن علم الله بهم واطِّلاعِه عليهم.

الخُبْر بمعنىٰ العلم إلَّا أنَّه أخصُّ منه لكونه متعلِّقًا بدقائق الأمور، والله عَزَّوَجَلَّ خبير بعباده في كلِّ آن؛ لكن ذكر خُبْرِه بهم في ذلك الوقت وهو يوم القيامة فيه إشارة إلىٰ الجزاءِ بأعمالهم النَّاشئِ عن علم الله بهم واطِّلاعِه عليهم، والعلم والخُبْر قد يُذكران في القرآن ويرادُ بهما الإعلامُ بالجزاء كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[البقرة:٢٧٠]، فإنَّ المراد علم جزائه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد علم جزاؤه فقدَّره للعبد.

۞۞۞۞

تفسير سور القارعة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾

الْقَارِعَةُ من أسماءِ يومِ القيامة، لأنَّها تقرعُ قلوبَ النَّاس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظَّم شأنها وهوَّل أمرَها بقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ فأيُّ شيءٍ هي هٰذه القارعة؟ وأيُّ شيءٍ أعلمَكَ بها؟، ثمَّ أخبر عنها فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ من شدَّة الفزع والهول، ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ أي المنتشر، والفراشُ: فَرْخ الجراد حين يخرج من بيضه يركَب بعضُه بعضًا، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر].

تفسير الفراش بفرْخ الجراد دلّ عليه شيئان اثنان:

أحدهما: دليل النقل في قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ فهٰذه الآية تفسِّرُ آية سورةِ القارعة.

والآخر: دليلُ العقل وهو أن السُّورةَ المذكورة في وصفِ النَّاس يومئذ في أحوالِهم أليق بها جعلُها علىٰ سورة فرْخ الجراد إذا خرج من بيضِه فإنَّه يركَبُ بعضُه بعضًا؛ فهو أليقُ بمناسبة المعنىٰ.

ومن فسَّرَ الآيةَ كما في قول كثيرٍ من المفسِّرين أنَّ المراد كتهافت الفراش في النَّار فهٰذا يردُّه دليل العقل والنَّقل.

۞۞۞۞

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي الصُّوف ﴿ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ المتمزِّق الَّذي فُرِّقت بعض أجزائه عن بعضٍ.

وفي ذلك اليوم تُنصب الموازين، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ برُجحان حسناته علىٰ سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ أي حياةٍ مرضيَّةٍ في جنَّات النَّعيم، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ بأن لم تكن له

حسناتٌ تُقاوِمُ سيئاته ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أي مأواه ومسكنه النَّار، تكون له بمنزلة الأُمِّ الَّتي يأوي إليها ويَلْزَمُها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾[الفرقان]، أي ملازمًا أهلَها، وعظَّم أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾، ثمَّ فسَّرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ أي شديدةُ الحرارة، من الوقود عليها، وإنَّ حرارتها لتزيد علىٰ حرارة نار الدُّنيا سبعين ضِعفًا، كما صحَّ في الحديث.

۞۞۞۞

تفسير سورة التَّكاثر

عن عبدِ الله بنِ الشِّخِّير رضي الله عنه قالَ: أَتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهوَ يقرأُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قالَ: «يقولُ ابنُ آدمَ: مَالِي! مَالِي!»، قالَ: «وهلْ لكَ يا ابنَ آدَمَ من مالِكَ إِلَّا ما أَكلتَ فأَفنيتَ، أَو لَبِستَ فأَبلَيتَ، أَو تصدَّقتَ فأَمضَيتَ». رواه مسلمٌ.

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أَخشىٰ عليكمُ الفقرَ، ولكِنْ أَخشىٰ عليكمُ التَّكاثُرَ، وما أَخشىٰ عليكمُ الخطأَ، ولكِنْ أَخشىٰ عليكمُ العَمْدَ». رواه أحمدُ، وإسناده صحيحٌ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

يقول الله تعالىٰ موبِّخًا المشركين ومحذِّرًا عباده المؤمنين: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي شَغَلكم عمَّا خُلِقتم له وهو عبادة الله ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ التكاثر فيما تجمعونه من النِّساء، والبنين، والقناطير الْمُقنطرة من الذَّهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، وحذفَ الْمُتكاثَرَ به ليشمل كلَّ ما يُكاثر به، ولم تزالوا علىٰ تلك الحال ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ بأن مُتُّم فدُفنتم فيها وصِرتم إليها، وإنَّما جعلَ المُقام في البرزخ زيارةً لأنَّ المقصود منه: النُّفوذ إلىٰ الدَّار الآخرة، فجعلهم الله زائرين لا مقيمين، والبعثُ والجزاء يكونان في تلك الدَّار، ولهذا توعَّدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ سوءُ عاقبة تكاثركم، وتشاغلِكم عن عبادة ربكم، وكرَّر الجملة إبلاغًا في التَّهديد، وزيادةَ تأكيدٍ في تحقُّقِ الوعيد.

ثمَّ زجرهم عن غيِّهم مرَّةً أُخرىٰ فقال: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ أي لو تعلمون علمًا ثابتًا في القلب ما تستقبلون بعد الموت؛ لَما ألهاكم التَّكاثرُ عن عبادة الله.

ثمَّ أقسم الله تعالىٰ فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ والجملة جواب قسمٍ محذوفٍ، تقديره: والله لترَوُنَّ الجحيم الَّتي أعدَّها الله للكافرين، ثمَّ أكَّد القسمَ بقسمٍ آخرَ فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ أي عِيانًا بأبصاركم؛ وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ۝٧١﴾، فإذا رأيتموها سُئلتم عن النَّعيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ فلَيَسألنَّكم الله عمَّا تنعَّمتم به في دار الدُّنيا، أشكرتم أم كفرتم؟

عن عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن أبيه قالَ: لمَّا نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، قالَ الزُّبيرُ: يا رسولَ اللهِ، وأيُّ النَّعيمِ نُسأَلُ عنهُ، وإنَّما هما الأَسوَدانِ التَّمرُ والماءُ؟! قالَ: «أَما إِنَّهُ سيكونُ». رواه التِّرمذيُّ بسندٍ حسنٍ.

وعن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: خرجَ رسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ أَو ليلةٍ، فإذا هوَ بأَبي بكرٍ وعمرَ، فقالَ: «ما أَخرجَكُما من بُيُوتِكُما هٰذه السَّاعةَ؟!» قالا: الجوعُ يا رسولَ اللهِ، قالَ: «وأَنا والَّذي نفسي بيدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُما، قومُوا»، فقاموا معهُ فأَتىٰ رجلًا من الأَنصارِ، فإذا هوَ ليسَ في بيتِهِ، فلمَّا رأَتهُ المرأَةُ قالت: مرحبًا وأَهلًا، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «أَينَ فلانٌ»؟ قالت: ذهبَ يَسْتَعْذِبُ لنا منَ الماءِ، إذ جاءَ الأَنصاريُّ فنظرَ إِلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وصاحِبَيهِ، ثُمَّ قالَ: الحَمدُ للهِ، ما أَحدٌ اليومَ أَكرمَ أَضيافًا منِّي، قالَ: فانطلقَ فجاءَهم بِعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقالَ: كلوا من هٰذه وأَخذَ المُدْيَةَ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكَ والحَلُوبَ»، فذبحَ لهم، فأَكلوا منَ الشَّاةِ، ومن ذلكَ العِذقِ، وشربوا، فلمَّا أَن شَبِعوا ورَوُوا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأَبي بكرٍ وعمرَ: «والَّذي نفسي بيدِهِ لَتُسأَلُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامةِ، أَخرجكم من بُيُوتِكُم الجوعُ، ثُمَّ لم ترجعوا حتَّىٰ أَصابَكم هٰذا النَّعيمُ». رواه مسلمٌ.

۞۞۞۞

تفسير سورة العصر

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾

استفتح الله هٰذه السُّورةَ بالقسم فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ وهو الوقتُ المعروف آخر النَّهار قبل غروب الشَّمس

اختيار هٰذا المعنىٰ دون سائر معاني العصر؛ لأنَّه المرادُ عند الإطلاق في الأدلَّة الشَّرعية، فإنَّ لفظ العصر المذكورِ في الأحاديث النَّبوية يُراد به هٰذا الوقت، ولا يُراد به ما سواه من المعاني، وتفسيرُ العصر بالدَّهر تفسير له بالظَّرف الأعلىٰ؛ لأنَّه شاملٌ لجميع أفراد العصر المذكورة في تفسير الآية؛ لكنَّ حملَ القرآن علىٰ المعنىٰ المعروف في خطابه أو خطابِ النبي ﷺ أولىٰ من حملِه علىٰ غيره، فالمعهود في خطاب الشرع كما يعلم من تتبع الأحاديث النبوية أنَّ العصر إذا أطلق أريد به هٰذا الوقت، فيكون تفسير الآية بالمعهود المعروف عندهم أولىٰ بما لم يأت في خطاب الشرع إرادةُ المعنىٰ به، فتفسير العصر بالوقت المعروف آخرَ النَّهار قبل غروب الشَّمس هو الملائمُ لمعهود الخطاب في الأحاديث النَّبويَّة.

وإذا فسِّرَ العصرُ بهذا الوقت اكتمل في القرآن الإشارةُ إلىٰ أوقات الصَّلوات الخمس:

فأمَّا الفجر فالإقسام به في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢﴾[الفجر].

وأمَّا الظُّهر فالإقسام به في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ لأنَّ الضُّحىٰ يتناهىٰ وقته عند الزَّوال، فهو قريب من الظُّهر فيكون تابعًا له، فما أن ينقضي الضُّحىٰ حتىٰ يكون الظُّهر.

والعصر مذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾.

والمغرب مذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾[اللَّيل] يعني إذا بدأ ظلامه.

والعشاء مذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي استحكم ظلامه وادلهمّ، وهٰذا يكون بعد مُضِيِّ قدر منه يبلغ وقت العشاء.

۞۞۞۞

والمقسَم عليه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ فكلُّ النَّاس في خُسرٍ، أي هَلَكةٍ ونقصانٍ، ثمَّ استثنىٰ من الخُسر الَّذين اتَّصفوا بأربع صفاتٍ هي المذكورة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

فالصِّفة الأُولىٰ: الإيمان، وإنَّما يُدرك أصله وكمالُه بالعلم.

والثَّانية: العمل الصَّالح. وبهما يُكمِّل الإنسان نفسَه.

والثَّالثة: التَّواصي بالحقِّ، يأمر بعضهم بعضًا به.

والرَّابعة: التَّواصي بالصَّبر علىٰ أمر الله. وبهما يُكمِّل الإنسانُ غيرَه.

تفسير سورة الهُمَزة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

هٰذه السُّورة مستفتحةٌ بالوعيد، ففاتحتها: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ وعيدٍ وتهديدٍ، تتضمَّن الدُّعاءَ عليه بسوء الحال؛ لتعديتها باللَّام في قوله: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾، فتقديرُ الكلام: ويلٌ له، وهو الَّذي يهمِز النَّاس بفعله، ويلمِزُهم بقوله، فالهمَّاز: من يعيب النَّاس، ويطعُن عليهم بالإشارة، واللَّماز: من يعيبهم بقوله.

فقوله: (ففاتحتها: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ وعيدٍ وتهديدٍ) أي كما تعرفه العرب في لسانها، فإنَّ العرب اتَّخذت خمس كلمات متَّفقة الوزن والمعنىٰ والتهديد، وهي: ويلٌ، وويح، وويك، وويب، وويس. أشار إلىٰ هٰذا ابن خالويه في كتاب «ليس»، وأمَّا تفسير (ويل) بأنَّه واد في جهنَّم فلم يثبت الحديث الوارد فيه.

ومن صفته حرصه علىٰ جمع المال وتَعديده كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾﴾، وهو لشدَّة وَلَعه بماله ﴿يَحْسَبُ﴾ لجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾ فأبقاه في الدُّنيا؛ لأنَّ الخلود فيها أقصىٰ أمانيِّه؛ إذ لا يُؤمن بحياةٍ أُخرىٰ.

ثمَّ توعَّده الله بأنَّ الأمر علىٰ خلاف ظنِّه، فما ماله بمخلِّده، وإنَّ الله معاقبُه، فقال: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ﴾ وهو جواب قسمٍ محذوفٍ؛ أي والله ليُطرحنَّ ﴿فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾ الَّتي تَحطِم ما يُلقىٰ فيها وتهشِمه، ثمَّ هوَّل شأنها وعظَّمَه في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾، ثمَّ فسَّرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾؛ أي الْمُسَعَّرةُ الْمُشعَلَةُ بالنَّاس والحجارة، ﴿الَّتِي﴾ من شدَّتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ فتنفُذ من الأجساد إلىٰ القلوب

فتُحرقُها، وألم حرق القلوب أشدُّ من ألم غيرها لِلُطفها.

وأهلها محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، كما قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي مُغلَقةٌ عليهم، وهم يُعذَّبون فيها ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ أي أعمدةٍ طويلةٍ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الفيل

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

ذكر الله تعالىٰ في هٰذه السُّورة خبرَ أصحاب الفيل، وباشر بالمخاطبة بها الرَّسولَ ﷺ تقويةً له وتثبيتًا؛ بإظهار قدرة ربِّه الَّذي أرسله؛ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ وهو استفهامٌ تقريريٌّ؛ أي أمَا علمت كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل؟: الَّذين كادوا بيته وأرادوا هدمه، فجعل سعيهم وما دبَّروه من شرٍّ في تضييعٍ؟! وهم الحبشة الَّذين جاؤوا مكَّة غزاةً مضمِرين هدم الكعبة؛ انتقامًا من العرب، فإنَّ ملِكهم أبرهة بنىٰ كنيسةً عظيمةً سماها (القُلَّيْس)، وأراد أن يصرف حجَّ العرب إليها، فجاء رجلٌ منهم فأحدث فيها تحقيرًا لها؛ ليتسامع العربُ بذلك فتهونَ عليهم، فغضب أبرهة وعزَم علىٰ غزو مكَّةَ ليهدم الكعبة، فجهَّز جيشًا عظيمًا لا قِبَل للعربِ به، واستصحب معه الفيل لهدمها، فلمَّا انتهَوا إلىٰ قُرب مكَّة، خرج أهل مكَّة منها خوفًا علىٰ أنفسهم، فحبس الله الفيل، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ أي جماعاتٍ متتابعةً متفرِّقةً، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ تقذِفهم بحصًىٰ صغيرةٍ من سجيلٍ وهو الطِّين المتحجِّر، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ أي محطَّمين كبقايا الزَّرع الَّذي دخلته البهائم فأكلته، وداسَتْه بأرجلها، وطرحته علىٰ الأرض، بعد أن كان أخضرَ يانعًا، وكان هٰذا عامَ مولدِ النَّبيِّ ﷺ.

قوله: (وكان هٰذا عامَ مولدِ النَّبيِّ ﷺ) فيه إشارة إلىٰ فائدة لطيفة، فإذا قيل لك: أين ذكر مولد النَّبي ﷺ في القرآن؟ فإنه في هٰذه الآية، لأنَّ عام الفيل جُعل توطئة لميلاده ﷺ وهٰذا من الاستدلالات المتلازمة، والبخاري رحمه الله تعالىٰ يصنع هٰذا كثيرا، فإنَّه قال مثلا: (باب الحوض وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ

﴿١﴾) ما علاقة الحوض بالكوثر؟ لأنَّ الحوض يُمدُّ ماؤه من الكوثر؛ ففيه ميزابان يشخبان في الحوض؛ يعني يصبَّان فيه كما سيأتي، فلأجل ما بينهما من التَّلازم أورد البُخاري هٰذه الآية في باب الحوض.

۞۞۞۞

تفسير سورة قريشٍ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾

هٰذه السُّورة مفردةٌ في قبيلة النَّبيِّ ﷺ تعظيمًا له ولهم، والجارُّ والمجرور في صدرها ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، ودخلت عليه الفاءُ لما في الكلام من إرادة الشَّرْط؛ إذ معناه: إنَّ نعمَ الله عليهم لا تُحصىٰ فإن لم يعبدوه لأجل ربوبيته الْمُظهَرَة بنعمه فليعبدوه لأجل إيلافهم؛ أي ما لزموه واعتادوه مع الأنس به، ثمَّ فسَّره بقوله: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، وهي رحلة تجارتهم في الشِّتاء لليمن، وفي الصَّيف للشَّام.

صنعاء باردة، يعني منطقة تِهامة من اليمن، فلم يكونوا يذهبون إلىٰ الجبال التي هي جهة صنعاء وما حوْلَها، المقصود اليمن الأدنىٰ الذي هو تهامة دافئ في الشِّتاء حارٌّ جدًّا في الصَّيف.

۞۞۞۞

وأخَّر ما أمرهم به اهتمامًا بما قدَّم فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وخصَّه بالرُّبوبية لفضله وشرفه، ثمَّ أبرز بعض ما طواه قبلُ من نعمه عليهم الموجبة عبادتَه؛ فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ فرزقهم من الثَّمرات، وهيَّأ لهم أسباب التِّجارات، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ فصيَّر بلدَهم حرمًا آمنًا، وأعظمَ قدرهم عند الخلق فلا يَتعرضُ لهم أحدٌ بسوءٍ؛ لأنَّهم جيرانُ الكعبة المعظَّمة.

فانتظام سياق معانيها في وضع الكلام: لِتَعبدْ قريشٌ ربَّ هذا البيت؛ لِما أنعم عليهم في رحلة الشِّتاء والصَّيف، فأطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الماعون

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالىٰ في ذمِّ من ضيَّع حقَّه وحقوق عباده: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ وهو الجزاء، والاستفهام للتَّعجب من حالهم، وما أورثهم تكذيبَهم من سوء الصَّنيع، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ أي فهو ذلك الَّذي يدفع اليتيم بعنفٍ وشدَّة، ويمنعه حقَّه، لغلظة قلبه، وتكذيبِه جزاءَ ربِّه، ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيرَه - والحضُّ: الحثُّ -﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾، وأحرىٰ به أنَّه لا يُطعمه بنفسه؛ لمحبَّته المال وبخلِه به.

ثمَّ توعَّد صنفًا من المصلِّين هم المنافقون فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ أي لاهون، فلا يُؤدُّونها في وقتها، ولا يُقيمونها علىٰ وجهها.

وفي «صحيح مسلمٍ» عن أَنسِ بنِ مالِكٍ، قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «تلكَ صلاةُ المنافِقِ: يجلِسُ يرقُبُ الشَّمسَ، حتَّىٰ إذا كانتْ بينَ قَرني الشَّيطانِ؛ قامَ فنقرها أَربعًا، لا يذكرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا».

والسَّهو عن الصَّلاة هو المُستشنع المذموم، وأمَّا السَّهو فيها فيقع من كلِّ أحدٍ، لأنَّه واردٌ قلبيٌّ لا اختيار للعبد فيه.

فالسَّهو عن الصَّلاة مركَّبٌ من شيئين:

أحدهما ترك أدائها في وقتها، وإليه الإشارة بالحديث في قوله: « يجلِسُ يرقُبُ الشَّمسَ، حتَّىٰ إذا كانتْ بينَ قَرني الشَّيطانِ ».

والثَّاني ترك إقامتها علىٰ وجهها، وإليه الإشارة في الحديث بقوله: « فنقرها أَربعًا، لا يذكرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا».

والسَّهو عن الصَّلاة هو المستشنع المذموم شرعًا. وأمَّا السَّهو في الصَّلاة فإنَّه يقع من كلِّ أحدٍ لأنَّه وارد قلبي يغلب علىٰ القلوب ولا اختيار للعبد فيه.

۞۞۞۞

ثمَّ وصفهم بالرِّياء والحرص علىٰ الدُّنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ فيُظهرون أعمالهم

الصَّالحة ليراها النَّاس؛ فيحمدوهم عليها، ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ أي يمنعون النَّاس منافعَ ما عندهم، كالزَّكاة وما لا تضرُّ إعارَته، ممَّا يُستعان به علىٰ عمل البيت من آنيةٍ وآلةٍ؛ ومنها القِدْرُ والدَّلو وما جرت العادة ببَذْله، لشدَّة حرصهم علىٰ الدُّنيا وشُحِّهم بها، فلا هم أحسنوا عبادة ربِّهم، ولا هم أحسنوا معاملة خلقه.

۞۞۞۞

تفسير سورة الكوثر

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾

امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ؛ فقال له: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ وهو نهرٌ في الجنَّة، ومنه يَشْخُبُ ميزابانِ يصُبَّان في حوض النَّبيِّ ﷺ في عَرَصَات يومِ القيامة.

قوله: (ومنه يَشخُب ميزابانِ يصُبَّان في حوض النَّبيِّ ﷺ في عَرَصَات يومِ القيامة) ثَبَتَ هٰذا الوصف في «صحيح مسلم»، **والشَّخب الجريُ بشدَّةٍ وانحباس**، وهٰذا الحديث يبيِّن اتِّصال الحوض بالكوثر، فمدد الحوض وماؤه الَّذي يكون فيه هو آتٍ من الميزابين اللَّذين يصُبَّان من نهر الكوثر.

۞۞۞۞

وفي «صحيح مسلمٍ» عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: بينا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ بينَ أَظهُرِنا؛ إذ أغفىٰ إِغفاءَةً، ثُمَّ رفعَ رأْسهُ مُتبسِّمًا، فقلنا: ما أَضحكك يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «أُنزِلَت عليَّ آنِفًا سورةٌ»، فقرأَ: «﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾»، ثُمَّ قالَ: «أَتدرُونَ ما الكوثَرُ؟»، فقلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: «فإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ، عليهِ خيْرٌ كثيرٌ، هوَ حوضٌ تردُ عليهِ أُمَّتي يومَ القيامةِ، آنِيَتُهُ عددُ النُّجومِ، فيُختَلَجُ العبدُ منهم فأَقُولُ: ربِّ إِنَّهُ من أُمَّتي، فيقولُ: ما تدري ما أحدَثَتْ بعدَكَ».

هٰذا الحديث الذي فسَّر به المصنِّف الكوثر وما في معناه من الأحاديث دالٌّ علىٰ أنَّ الكوثر المذكور هنا هو نهرٌ في الجنَّة أُعطيه النَّبي ﷺ، وأمَّا تفسيرُ الكوثر أنَّه الخير الكثير وأنَّ من أفراده النَّهر المذكور ففيه نظر؛ لأنَّ أهل الجنة يعطون خيرًا كثيرًا كما قال تعالىٰ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾[هود]، يعني كثير، وكذلك في سورة عمَّ

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ و﴿عَطَآءً﴾ نكرة، والتَّنكير يدلُّ علىٰ التَّكثير والتعظيم، فإذن لا معنىٰ لاختصاص النَّبيِّ، والآية في مشهد امتنان، فالمناسب للامتنان أن يفسَّر الكوثر المذكور في الآية بالنَّهر الذي أُعْطِيَه النَّبي ﷺ؛ فلذلك نقول: من فسَّر الكوثر بأنَّه الخير الكثير، فإنَّ هٰذا التَّفسير ليس فيه إظهارُ امتنان من الله ﷻ علىٰ محمَّد ﷺ؛ لأنَّ العطاء الكثير واقعٌ لجميع أهل الجنة، فالمناسِب لمشهد الامتنان أن يكون العطاء المذكور هنا عطاءً خاصًّا، لا يكون لغير النَّبي ﷺ؛ وهو النَّهَر.

۞۞۞۞

ولمَّا ذكر منَّته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي أخلص صلاتَك كلَّها لربِّك، واجعل ذبحك له وعلىٰ اسمه وحده، وخَصَّ هاتين العبادتين بالذِّكر لفضلهما، فالصَّلاة تتضمَّن خضوع القلب والجوارح لله، والنَّحر يتضمَّن التَّقرُّب إليه بسفك الدَّم من النَّحائر المشتمل علىٰ سماحة النَّفس بالمال.

ثمَّ ذكر من منَّته عليه أيضًا خَسَار شانئه فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ المقطوع من كلِّ خيرٍ.

الذي يقول: ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي ليس له عقب، لا يقول: المقطوع من كل خير، ما الردُّ عليه؟ أنَّ الآية متعلِّقة في سبب نزولها بالعاص بن وائل، والعاص بن وائل له عقب هو عمرو بن العاص، وله ولده عبد الله، ولعبد الله أولاد، فتفسيرها بهذا خلافُ الواقِع، **والمناسب تفسيرُها علىٰ إرادة ذمِّه بأنه قطْعُه عن الخير**، فإنَّ أشدَّ الذَّم قطعه عن الخير بالكلِّية.

تُذكر في كتب التَّفسير أقوالًا تكون مقطوعةً عن القدر والشَّرع، فيتعجب من صدورها، كهذا القول فإنَّ هٰذا القول الذي يقول: لا ولد له، أي لا يكون له ولد، يُتعجَّب منه لأنَّه خلافُ الواقع قدرًا؛ إذ صار له ولد.

وقول كذلك من فسَّر البيت العتيق بأنَّ معناه المعتَق من الجبابرة، مخالف للشَّرع؛ لما في «الصَّحيحين» من خبر ذي السُّويقتين الذي ينقض الكعبة حجرًا حجرًا. وهٰذا التَّفسير فيه نظر، والصَّحيح أنَّ العتيق يعني القديم المتقدِّم علىٰ غيره.

والدَّليل أنَّه متقدِّم علىٰ غيره قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾[آل عمران:٩٦]، ولذلك فيه واقعة لعبد الحميد بن باديس خذوا بها، فقد حدثني بعض تلاميذه أنَّه كان يذكرُ لشيخه محمَّد النَّخلي أحد علماء الزَّيتونة أنَّه كان يحار فيما يذكره المفسرون من الأقوال مختلفة في تفسير الآي، فأرشده إلىٰ أن ينظر أوَّلا إلىٰ تفسير القرآن بما ذُكر فيه، ثم ينظر بعد ذلك في أقوال المفسرين فيحاول التَّأليف بينها فما كان صحيحًا أخذ به وما كان زائفا أبطله، فالذي ينظر إلىٰ ما ذُكر من وصف البيت العتيق مستحضرًا قول الله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يكون حاملًا له علىٰ هٰذا المعنىٰ، والذي يطالع أقوال المفسِّرين واحدًا بعد واحد تحصل له حيرة، وهٰذه نصيحة نافعة في كيفية التَّفسير، لٰكِن ليس المراد أن يفسِّر الإنسان بمجرَّد ظنه ووهمه ويحكم به دون مراجعة كلام أهل العلم؛ بل يقدِّر ذلك تقديرًا ثم ينظر بعد ذلك في كتب أهل العلم، ولهٰذا فإنَّ القراءة النَّافعة في العلم لما تريد أن تستشرحه وتستفهمه أن تقرأه قبل حضورِكَ منفصلًا عن شرحٍ له، وتُعمل تصوُّر معانيه في نفسك حتىٰ إذا أتيْتَ لمن يشرح لك أوقع لك ما في نفسك من المعاني ما كان صحيحًا في محلِّها، وما كان غير صحيح أخرجَه من نفسك.

۞۞۞۞

وروىٰ النَّسائيُّ في «السُّنن الكبرىٰ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لمَّا قدِمَ كعبُ بنُ الأشرفِ مكَّةَ، قالتْ لهُ قُرَيشٌ: أَنت خيرُ أَهلِ المدينةِ وسيِّدُهم، قالَ: نعم، قالوا: أَلا ترىٰ إِلىٰ هذا المُنْبَتِرِ من قومِهِ؟، يزعُمُ أَنَّهُ خيرٌ منَّا، ونحنُ -يعني أَهلُ الحجيجِ، وأَهلُ السِّدانةِ-!، قالَ: أَنتم خيرٌ منهُ، فنزلت ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾، ونزلت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾، إِلىٰ قوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النِّساء]. وإسناده صحيحٌ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الكافرون

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

أمر اللهُ رسولَه ﷺ في هٰذه السُّورة أن يُبلِّغ الكافرين أمرًا عظيمًا؛ فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ الباقون علىٰ كفركم: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ من الآلهة في المستقبل، كما أنِّي لا أعبدها الآن.

المرادُ من قوله ﷺ ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ تأييسُهم من موافقته ﷺ لهم علىٰ دينهم، فهو ثابتٌ علىٰ الدِّين الذي أنزله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه.

۞۞۞۞

ثمَّ أخبر عن حالهم فقال: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾، وهو الله المستحقُّ وحده للعبادة، فعبادتكم إيَّاه

وأنتم تُشركون به لا تُسمَّىٰ عبادةً، ثمَّ كرَّر براءته من آلهتهم فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ للدَّلالة علىٰ الثَّبات، وتأييسهم من عبادته لها، وأخبر عن تحقُّق تكذيبهم فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ للدَّلالة علىٰ أنَّ ذلك صار وصفًا لازمًا لهم: أنَّهم لا يؤمنون.

فلكلٍّ دينُه الَّذي رضيه كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾، فلكُم دينُكم الَّذي رضيتموه وهو الشِّرك، وليَ ديني الَّذي رضيه لي ربِّي وهو الإسلام.

۞۞۞۞

تفسير سورة النصر

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

تضمَّنت هذه السُّورة بشارةً لرسول الله ﷺ، وإشارةً عند حصولها وأمرًا.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله له علىٰ الكافرين، ووقوع فتح مكَّة، ودخول النَّاس في دين الله أفواجًا أي جماعاتٍ تِلوَ جماعاتٍ، وذلك في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾.

وأمَّا الإشارة والأمر فهي الإشارة إلىٰ دُنوِّ أجله ﷺ، وذلك في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ﴾، فإنَّ عمره ﷺ عمرٌ فاضلٌ أقسم الله به، والأمور الفاضلة تُختم بالاستغفار، كالصَّلاة والحجِّ، فأمرُ الله رسوله ﷺ أن يُسبِّحَه مع حمده ويستغفرَه؛ فيه إشارةٌ إلىٰ انقضاء عمره، ليتهيَّأ للقاء ربِّه.

كونُ هٰذه السُّورة فيها إشارة إلىٰ دنوِّ أجله استنبطه منها عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في «الصَّحيحين» في قصَّةٍ طويلةٍ.

۞۞۞۞

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ يُوفِّق الخلق للتَّوبة ويقبلها منهم، فكان ﷺ يتأوَّل القرآن، ويُكثِر أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سُبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، اللَّهمَّ اغفرْ لي». متَّفقٌ عليه.

قوله: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ يُوفِّق الخلق للتَّوبة ويقبلُها منهم) فيه إشارة إلىٰ أن توبة الله علىٰ عبده

تشمل معنيين اثنين:

الأوَّل: توفيقه إلىٰ إيقاعها والقيام بها.

والثَّاني: قَبولها منه.

أشار إلىٰ هٰذا أبو العباس ابن تيمية الحفيد في رسالة «التَّوبة».

۞۞۞۞

تفسير سورة المَسَد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

أخرج البخاريُّ ومسلمٌ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: لمَّا نزلتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعراء] صعِدَ النَّبيُّ ﷺ علىٰ الصَّفا، فجعلَ يُنادي: يا بني فِهْرٍ، يا بني عَدِيٍّ؛ لبُطُونِ قُرَيشٍ حتَّىٰ اجتمعوا، فجعلَ الرَّجلُ إذا لم يستطِعْ أن يخرُجَ أرسلَ رسولًا؛ لِيَنظُرَ ما هوَ، فجاءَ أبو لَهبٍ وقُرَيشٌ، فقالَ: «أَرَأَيْتَكُم لو أخبَرْتُكُم أنَّ خيلًا بالوادي تُريدُ أن تُغِيرَ عليكُم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟!»، قالوا: نعم ما جرَّبنا عليكَ إلَّا صِدقًا، قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بينَ يدَي عذابٍ شديدٍ»، فقالَ أبو لَهَبٍ: تبًّا لكَ سائِرَ اليومِ، ألِهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾.

وأبو لهبٍ من أعمام النَّبيِّ ﷺ، وكان شديد العداوة والأذيَّة له، فهلك بذلك كما أخبر الله عنه وعن امرأته في هذه السُّورة فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي خسِرت يداه، ﴿وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ فلم يربح، والجملة الأُولىٰ دعاءٌ عليه، والثَّانية خبرٌ عنه، و﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ وكسبه: ولده، فلن يردَّ عنه ماله وولده شيئًا من عذاب الله إذا نزل به.

وقد توعَّده الله بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ أي سيدخل نارًا عظيمةً تتوقَّد فيصلاها، ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾، وهي أمُّ جميلٍ الَّتي كانت تحمل أغصان الشَّجر الكبيرة ذاتِ الشَّوك، فتُلقيها في طريق رسول الله ﷺ؛ أذيَّةً له، فأعدَّ الله لها في عنقها حبلًا من مَسَدٍ؛ كما قال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ والـمَسَد: اللِّيف الشَّديد الخشونة إذا فُتِل وجُدل كضفائر الشَّعَر.

وكان نزول هٰذه السُّورة قبل موت أبي لهبٍ وامرأته، وأخبر الله أنَّهما سيُعذبان في النَّار، فلن يُسلِما، فوقع

الأمرُ كما أخبر ﷻ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الإخلاص

عن أَبي الدَّرداءِ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «أَيعْجِزُ أَحدُكُم أَن يقرأَ في ليلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ»، قالوا: وكيفَ يقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالَ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ». رواه مسلمٌ.

وجه التَّثليث المذكور هنا في القول الصَّحيح هو أنَّ القرآن:

- منه ثلثٌ خبرٌ عن الخالق.
- ومنه ثلثٌ خبرٌ عن المخلوق.
- ومنه ثلثٌ خبرٌ عن حقِّ المخلوق علىٰ الخالق.

وهٰذه السُّورة متمحِّضة في الثُّلث الأوَّل، وهو الخبر عن الخالق، اختار هٰذا جماعة من المحقِّقين منهم أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم رحمهما الله.

۞۞۞۞

وعن أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه، أَنَّ المشرِكِينَ قالُوا لرسولِ اللهِ ﷺ: انْسُبْ لنا ربَّكَ، فأَنزلَ اللهُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾. رواه التِّرمذيُّ وغيرُه، وهو حديثٌ حسنٌ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

لَمَّا كان الدِّين مبنيًّا علىٰ الإخلاص؛ أخلص الله هٰذه السُّورة لنفسه، آمرًا رسوله ﷺ أن يُبلِّغ عنه فقال له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي قل أيُّها الرَّسول مبلِّغًا: إنَّ الله هو الأحد المنفرد بالكمال، المتفرِّد بالأُلوهية والرُّبوبية والأسماء والصِّفات، فلا يُشاركه أحدٌ فيها.

وأنَّه هو ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي السَّيِّد الكامل المقصود في قضاء الحوائج، فالخلق مفتقرون إليه، وهو مستغنٍ عنهم.

صَمَدانية الله تجمعُ معنيين اثنين:

أحدهما: كمالُ سؤدده في نفسه.

والآخر: توجُّه الخلق إليه لابتغاء قضاء حوائجهم.

۞۞۞۞

ومن كماله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾، فليس له ولدٌ ولا والِدٌ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فلا يُكافئه أحدٌ في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالىٰ.

۞۞۞۞

تفسير سورة الفلق

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَم ترَ آياتٍ أُنزِلتِ اللَّيلةَ؛ لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾» رواه مسلمٌ.

ومعنىٰ «لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ» أي في الاستعاذة بهنَّ، وكان الرَّسول ﷺ إذا أوىٰ إلىٰ فراشِهِ كُلَّ ليلةٍ جمعَ كفَّيهِ ثمَّ نفثَ فيهما بالإخلاص والمعوِّذتين، ثمَّ يمسحُ بهما ما استطاعَ من جسدِهِ: يبدأُ بهما علىٰ رأْسِهِ ووجهِهِ، وما أَقبلَ من جسدِهِ، يفعلُ ذلكَ ثلاثَ مرَّاتٍ. متَّفقٌ عليه.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

أمر الله الرَّسول ﷺ في سورة الإخلاص أن يقول مبلِّغًا، وأمره في سورة الفلق والنَّاس أن يقول متعوِّذًا، فقال له هنا: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي ألجأ وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ وهو الصُّبح، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ الله، وهو يعمُّ كلَّ مخلوقٍ فيه شرٌّ.

قوله: (وهو يعمُّ كلَّ مخلوقٍ فيه شرٌّ) فيه أنَّ العموم المذكور هنا ليس علىٰ وجهه، فليس قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل مخلوق؛ بل الاستعاذة من مخلوق له وصف معين، وهو وصف الشّر، فخرج المخلوق الذي لا شر فيه، مثل الجنة، وعرش ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلابد من تقييده بهذا.

۞۞۞۞

ثمَّ ذكر بعض أفراد المخلوقات المشتملة علىٰ شرٍّ، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ وهو اللَّيل إذا استحكم ظلامه، لما فيه من انتشار الأرواح الشِّرِّيرة، والحيوانات المؤذية، وعند التِّرمذيِّ بسندٍ صحيحٍ

عن عائِشةَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نظرَ إِلىٰ القمرِ، فقالَ: «يا عائِشةُ، استعيذي باللهِ من شرِّ هـذا فـإِنَّ هٰـذا هـوَ الغاسِـقُ إِذا وَقَبَ»، فجعل القمر علامةً له.

فيكون الحديث تفسيرا الليل بذكر علامة له تختصّ به وهي القَمَر.

۞۞۞۞

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ وهي الأنفس السَّواحر من الرِّجال والنِّساء، اللَّواتي يستعِنَّ علىٰ سحرهنَّ بالنَّفخ مع ريقٍ لطيفةٍ في العُقَد المشدودة عليه.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ وهو من يكره وصول النِّعمة إلىٰ محسوده، استعاذ منه إذا ثار حسُده وبرز.

وقد تضمَّنت هذه السُّورة الاستعاذة من أنواع الشُّرور عمومًا، ومن أصولها خصوصًا.

۞۞۞۞

تفسير سورة الناس

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

مستهلُّ هذه السُّورة كسابقتها فإنَّ الله أمر رسوله ﷺ أن يقول متعوِّذًا، فقال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي ألجأ وأعتصم، ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ وهو سيِّدهم المالك والمصلح لهم، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ ﴾ ومِلكه من ربوبيَّته؛ لكن أُفرد لجلالة موقعه، ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾: معبودِهم بحقٍّ؛ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ وهو الشَّيطان، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾ فيُحسِّن لهم الشَّرَّ، ويُقَوِّي إرادتهم له، ويُقبِّح لهم الخير ويُثبِّطهم عنه، فإذا استعاذ منه العبد تأخَّر واندفع عنه، فالخنَّاس هو المتأخِّر المندفِع إذا ذكر العبد ربَّه واستعاذ به في دفعه، ومحلُّ وسوسته: صدور الخلق ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

فالآية الأخيرة متعلِّقة بذكر الموسوَسِ فيه لا بذكر الموسوِس، فإنَّ فعل الوسوسة ليس من أفعال النَّاس؛ بل يختصُّ بالجِنَّة، فتكون الآية الأخيرة تفسيرًا لآخر الآيات التي تسبقها، فالمعنىٰ أنَّ الشَّيطان يوسوس في صدور النَّاس، وهؤلاء الموسوَس في صدورهم هم الجنَّة والنَّاس، وذِكر النَّاس بعد الجنَّة من عطف العام علىٰ الخاص، فإنَّ اسم النَّاس في أصح قولي أهل اللُّغة يشمل الإنسَ والجن، لرجوعه إلىٰ أصل النَّوس وهو

الحركة والاضطراب، وهٰذا الأصل موجود في الجنسين معًا، فيكون ردُّ النَّاس بعد الجِنّة من ذكر العام بعد الخاص.

أمَّا من يقول: إنَّ المذكور هنا هو الموسوس، ويستدلُّ بما ورد من ذكر شياطين الإنس، وأنَّ في الإنس شياطين كشياطين الجن، هٰذا صحيح لٰكِن ليس من أفعال شياطين الإنس الوسوسة؛ لأنَّ الوسوسة إلقاءٌ باطن خفي، وهٰذا ممكن في حق ابن آدم؟! لا يمكن أن يكون باطنًا خفيًّا.

۞۞۞۞

تمَّ بعونِ اللهِ وحُسنِ توفيقِهِ

تَفْسِيرُ سورة الفاتحة وقِصَارِ المُفَصَّلِ

علىٰ يد جامعه لنفسه، ولمن شاء الله من خلقه

صَالِح بنِ عَبدِ اللهِ بنِ حَمَدٍ العُصَيمِيِّ

غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَلِوَالِدَيهِ، وَلِمَشَايِخِهِ، وَللمُسلِمِينَ

فِي الثَّامِنِ مِن شَوَّالَ، سَنَةَ ثَلَاثِينَ بَعدَ الأَربَعمِائَةِ وَالأَلفِ

بِمَدِينَةِ الرِّيَاضِ، حَفِظَهَا اللهُ دَارًا للإِسلَامِ وَالسُّنَّةِ

وبهذا ينتهي شرح الكتاب علىٰ نحوٍ مختصر يوقف علىٰ مقاصده الكلِّيَّة ومعانيه الإجمالية، اللّٰهمَّ إنَّا نسألك علما في المهمَّات ومهمًّا في المعلومات، وبالله التَّوفيق.

۞۞۞۞